البحر الأسود المتوسط

إبراهيم العلوش- قصص- 2010 دمشق

إلى ذكرى أخي عبدالله..

الذي صبا ما صبا

ولم يعلُ الشيبُ رأسه!!

البحر الأسود المتوسط

قصص قصيرة

إبراهيم العلوش

دار الفرقد
دمشق 2010

البحث

قضينا عدة أشهر معاً...

في البداية لم نتبادل الحديث، ربما خلال أسبوع أو عشرة أيام، فقط كان ينبهني للنظر يميناً وشمالاً وعندما نقترب من جمع يخفف من سرعته ويقول بصوت خافت: انظر إليهم جيداً عله يكون بينهم!

كان يأتيني كل يوم في حدود الرابعة بعد الظهر، كنت معتاداً على النوم ظهراً ولم أعد أستطعه، صوت الدراجة النارية يلامس رأسي وأنا أتشاغل في الظهيرة هنا وهناك، مفكراً برحلة اليوم لئلا يأتيني النوم فجأة، ويضطر الرجل للانتظار في الشارع. لكنني وقبل أن يقف حذاء الرصيف، وقبل أن يطفئ المحرك، كنت أخرج إليه من باب البيت الذي لم يعد ينام فيه الآخرون، فالكبار صاروا قلقين عليّ، والصغار يستغلون فترة الظهيرة عادة باللعب والصخب خارج رقابة الأهل الصارمة، متحررين من الأوامر والنواهي والسخرة: إذهب إلى بيت فلان! قل لفلان الفلاني! ناولني هذا الغرض أو ذاك!.

في البداية، كانت رحلاته غير منتظمة، لكنه وبعد الأسبوع الأول عندما بدأ مجرى الكلام بيننا، صار يفصح لي عن نواياه في البحث، وكأنه لم يعد يطيق التنقل أربع ساعات يومياً صامتاً. وفي أيام العطل والجُمع، كنا نقضي معاً حوالي العشر ساعات، وصارت تتخللها فترات توقف لشرب (الكازوز)، أو القهوة، التي يرفض أصحاب المحلات أخذ حسابها منه، بعد أن اندرجت لاحقاً ضمن قطاعات بحثنا اليومي عملية البحث في المقاهي، والمطاعم، وأمام الجوامع، ووقت دخول المصلين، ووقت خروجهم، خاصة عند صلاة الجمعة.

كان الرجل دؤوباً، لا يبدي تبرماً، أو شكوى، ولم يحصل أن اشتكى لي حاله، أو وطأة عمله. فكرت بيني وبين نفسي؛ لو أنني امتلكت مثل هذا الدأب لتمكنت من إنهاء دراساتي العليا التي أجلتها سنة بعد سنة بحجج كثيرة بدت واهية في ما بعد، فمرّ عليّ زمن طويل من التشاغل والتذرع، حتى خسرت فرص العمل التي كانت تنهال علي من الخليج، فقد رحل معظم الناس، حتى اعتقدت إنه لم يبق في البلاد إلا أمثالي من المتقاعسين. استمر ذلك إلى أن التقيت هذا الرجل الدؤوب!

خلال هذه الفترة، نمَت لدي حاسة تلمس الوجوه، تلك الحاسة التي تنسل إلينا عبر لوحات (البورتريه)، أو المشاهد السينمائية التي تسبق الأحداث، وبشكل أقل في الوجوه التي تصفها الكتب. لكن هذه المرة كانت الوجوه حقيقية في شوارع أعرفها جيداً، غير أن الوجوه كانت غريبة عني، أو هاربة أمامي، وأنا أتأملها. هذه الغرابة هي التي أعطتني مسافة للتأمل والتدقيق، وجعلَت الوجوه أبعد قليلاً من اليومي والمألوف، وأقرب إلى التخيلي الذي عرفته في اللوحات والأفلام!

بعد شهر على بدء البحث، صرت أذهل من ثروة الوجوه التي تعبر إلى ذاكرتي. فلم أكن أتخيل أن يكون هذا البند الصغير في الخلق له كل هذه التفاصيل والاختلافات، ضمن هذا الحيز

المكاني الصغير. وجوه دائرية، ومستطيلة، باهتة، وحارة، مرعوبة، ومُصفرَّة، لا مبالية، تتكتم على شيء دفين من الحزن. وثمة وجوه كأن أصحابها يمشون عليها في الشوارع بدلاً من أرجلهم، ووجوه كأنها لاتزال من طين لم يجف بعد، تخشى الاقتراب منها لئلا تخرّب تكوينها، ووجوه كلوحات الإعلانات، فاضحة لكل ما خلفها، ووجوه كحجر البرية المشتت بلا نظام؛ كأنه خاضع للمصادفة فقط، ووجوه متقدة تنظر إليك بجمر، وأخرى باردة لاتنشغل بك، ووجوه منغمسة في الحياة اليومية، وأخرى مدفوعة إليها بالقوة، حتى لتبدو منساقة بلا هدف أو معنى.

الغريب أنني لم أحفظ تضاريس وجه الرجل على الرغم من الأشهر الطويلة التي قضيناها معاً نجول في الشوارع. ربما بسبب جلوسي الدائم خلفه، فلم أحفظ إلا نبرة صوته المتباعدة والمنبهة دوماً للتدقيق في الوجوه. كانت نبرته خشنة آمرة، دون تعمد، نتيجة دربة طويلة في إصدار الأوامر، رغم أنه لم يكن ذا مرتبة عالية، أو حتى متوسطة في عمله، لكن طبيعة العمل، والظرف، والاستفادة المجزية من النبرة، جعلتها تخرج بمهارة واعتياد، حاجبة عن الآخر أية فكرة للنقاش، أو التأكد.

أحياناً، يُخيل إليّ أنني لو رأيته الآن لن أعرفه إلا إذا نبر بكلمة، أو أمر. مُسحت صورته من مخيلتي، إذ إنني لم أتأمله

بنظرة طويلة تسجل تفاصيله جيداً في الذاكرة، فقد كنت أصعد خلفه مباشرة بعد همهمة مني تشبه السلام، وهمهمة منه تشبه الرد!

أستطيع القول إن الشهر الأول كان كرنفالياً بالنسبة للأشهر التي تلته، فقد اقتصر على المرور العابر أمام الوجوه المتجمعة دون تأكيدات، أو دراسة عميقة للوجوه، إذ كان الرجل يعطيني حرية النظر والالتفات دون توجيهات دقيقة ومدروسة من قبله!

وفي الأشهر التالية، صار يحدد منطقة واحدة نقوم برصدها كاملة، من شوارعها العريضة، والفرعية، والضيقة، إلى المنازل التي كان يكتب عناوينها في قائمة يحملها معه دائماً، .. تلك القائمة التي لم يطلعني عليها طوال الأشهر التي جمعتنا معاً.

يقرع الجرس، ودون مقدمات، ندخل المنزل. يقول لي انتبه جيداً! لا تخدعك نظرات المسكنة، أو الترحيب. ولا تفوّت وجهاً واحداً مهما بدا صغيراً، حتى الرضع تأملهم، فقد تشي ملامحهم بوجوه آبائهم، أو أخوتهم الكبار، فنحصل على المطلوب. يمشي أمامي.، يفتح الغرف، المطابخ، الحمامات، دورات المياه... الوجوه تنظر إلينا بذعر متصخر الملامح، ونحن ننسل بينهم دون أن يسألنا أحد عما نريد، ودون أن نقول لأحد ما نريد!

نبدأ رصد الحي بالمرور حوله. نسوِّره بدخان الدراجة النارية. ومن ثم نبدأ بالتوغل فيه عبر محاور مرسومة في خريطة يحفظها، راسمين بدخان دراجته خطوطاً متوازية ومتقاطعة، عازلين الوجوه في مربعات من دخان أزرق مائل إلى السواد أحياناً، حسب معاناة الدراجة من صعود الطريق، أو هبوطه. نمرُّ على دكاكين الحارات، وزوايا التقاطعات. يتبادل مع البعض إشارات لا أراها على وجهه، لأنه دائم الجلوس على الدراجة أمامي، لكنني أشاهد الردود على الوجوه المتوارية هنا وهناك، أو المؤشرة إلى هذا الاتجاه، أو ذاك. كانت الحارات مليئة بهم، فبعضهم أنيق، وبعضهم مهمل، وبعضهم الآخر لا تثير رؤيته أيَّ تساؤل. هذا يبدو عادياً؛ أبٌ لأولاد، أو شابٌ وسيم ينتظر صديقته، أو مصلِّح منهمك بصيانة الآلة التي بين يديه، لكنه سرعان ما يطلق الإشارة التي تغير اتجاهنا إلى مسار آخر!

* * *

خلال أشهر الصيف، أصبت بالسماط، كنت أستعمل مراهم متعددة لأخفف من التهاب فخذيّ اللذين يضخ عليهما جلد المقعد البلاستيكي حرّاً شديداً يذيب الجلد، لكن الرجل لم يشكُ من شيءٍ، وكأن دراجته النارية كانت جزءاً من جسده.

صارت الجولات عبئاً شديداً عليّ، .. حتى الجلسات التي كنا نرتاح فيها لم تكن تروق لي، و لا رواد المطاعم والمقاهي الغارقين بالأحاديث الكثيرة والمتناثرة حول كل شيء. وعندما رأيت الرجل الذي كنا نبحث عنه أخيراً، ترسّخت لدي القناعة بأن أحاديثهم أشبه بالركام، ركام يتناثر من أجل قتل الوقت، وتمضية أعمار متشابهة، حدَّ الضجر.

منذ بدأت الخروج مع رجل الدراجة النارية في تلك الظهيرة، انتابني إحساس غامض بأن شيئاً ما سيحدث. وقبل أن تنعطف الدراجة إلى الشارع الذي رأيته فيه دق قلبي، حتى أحسست بدقته العالية. وقبل أن أنغمس في تحليل إحساسي، رأيته على ناصية الطريق. بدا رجلاً مميزاً، ليس له طلة الناس المتكدسين في المطاعم والمقاهي، أو أي مكان آخر. ابتسامته شعّت عليّ من بعيد. كان ينظر إليّ غير آبه بسيماء رجل الدراجة أمامي، و رأسه كانت شمساً صغيرة تلمع في قلبي. إنه هو، هو الرجل الذي قال (لا)! لقد تبلورت ملامحه أمامي لحظة رأيته. في ذلك اليوم دخل الغرفة حين كنت وحيداً فيها، فقد ذهب بقية أعضاء اللجنة للإفطار، وبقيتُ عند صندوق الاستفتاء وحيداً. طلب ورقة ليصوت عليها، قلت له:

- طبعاً تريد أن تقول (نعم)!

- لا.. لا أريد أن أقول (نعم)!

- لا يجوز يا أخ .. سيأتينا وجع رأس!

قال: هذا رأيي! وتناول الورقة من يدي ورسم دائرة حول الـ (لا) السوداء القاتمة، تاركاً الـ (نعم)الخضراء. طوى الورقة وأسقطها في الصندوق ومضى. كانت هي الـ (لا) التي جعلت رجل الدراجة النارية يصطحبني كل تلك الأشهر خلفه. نظرت إلى وجهه المتبسم، كأنه يعرفني ويعرف سبب ركوبي خلف رجل الدراجة النارية، كان واثقاً من نفسه إلى درجة كدت أن أطلب من رجل الدراجة النارية التوقف وإلقاء القبض عليه صائحاً:

- إنه هو.. هو الرجل الذي صوّت بـ (لا)!

لكنني لم أستطع مناكدته. نوره ملأ صدري، فشعرتُ لحظتها بأنني كنت جزءاً من الركام الذي أراه كل يوم. أما هو فوجهه يسطع عالياً، وقامته ترتفع في عيني مثل قامة رجال الحكايات الجميلة.

قال رجل الدراجة النارية:

- كم أكره هذا المغرور. أتمنى أن أجد سبباً يوصلني إليه. عندها، سوف أجعل وجهه يشبه الحذاء. لا أحب أمثال هذا الآدمي، إنه من نوع غريب!

قلت له:

- حقاً، إنه من نوع غريب!

بعدها بأشهر، شعر الرجل بالقنوط، فأرجعني إلى البيت. ولأول مرة، قال لي:

- غداً لن آتي، إنني ذاهب في مهمة. سأعود إليك ذات يوم، ولا بد من أن نجده مهما طال الزمن!

❒❒

المخبر

كنت وما أزال في ركني المنزوي. أمامي أناس كثيرون، مراجعون وموظفون، فكل ما يتحرك لابد من أن يمرَّ أمامي. حظيت بهذا المكان بعد زمن طويل من البطالة اقتربت فيه من التسول، حتى جاء قريبي محمود، واشتكى له الوالد حالي، فأومأ موافقاً على التوسط لتعييني في أحد الأماكن التي يمون على أحد مدرائها.

وقّعتُ أوراقاً كثيرة. ذهبت ورجعت. وانتظرت في الممرات الطويلة المكتظة. لاأستطيع العودة إلى البيت دون نتيجة، فوالدي لا يقدر إلا على شراء الخبز.

في ذلك اليوم، ومثل كل يوم، خرجت في الصباح الباكر جائعاً، وكان يجب أن تمر ساعتان على الأقل لأشعر بالجوع، لكنني منذ استيقظت كنت جائعاً، وفي المساء قبل نومي، أيضاً، كنت جائعاً، وفي الظهيرة الماضية، أيضاً، كنت جائعاً، وفي الصباح الذي قبله، وفي رزمة الصباحات، ورزمة الظهيرات، وأكوام المساءات الماضية، أيضاً، كنت جائعاً، فالطعام في بيتنا لم يكن من أجل الشبع، بل من أجل تخفيف وطأة الجوع ليس إلا!

لماذا أرجع إلى البيت، وهذا الممر مكتظ بالناس؛ رجال ونساء، شبان وشيوخ، فتيات محجبات وأخريات شبه عاريات. والجميع يروح ويجيء منتظراً، فلماذا أخرج من هذه الدائرة التي تلم هذا الجمع بالتساوي. الأفضل أن أبقى في الممر، فالظل الموجود فيه على الأقل. كنت أراقب الناس الذين يراقبون بعضهم، والذين يراقبهم الموظفون، والمُراقبون من جهات أكثر خفاءً.

قال لي الموظف الذي سيكون زميلي بانزعاج وقرف:

- أين أوراقك؟

قدمت له الظرف وأنا أهتز قلقاً خشية نقص ورقة، أو طابع، أو توقيع، أو ما لست أدري، مما تبتكره الدوائر عادة.

دقق في الأوراق مطولاً، فرَدَها، وأعاد النظر فيها واحدة واحدة، كان يمحص في كل نقطة على الورق، كأنه يطارد خطأ، أو كلمة، أو شخطة، قد تبدو غير معتادة لنظره، فيستطيع أن يبني عليها حجة تقلعني من أمامه. لكنه انشغل فجأة بتلفون، فأشار لي بالذهاب مع الأوراق إلى غرفة مجاورة، ليشير لي من في الغرفة بالذهاب إلى غرفة أخرى في الطابق الأعلى. وقبل أن تهترئ الأوراق من كثرة التمحيص، بدأ عجوز أرعن بتلقيني مبادئ العمل في هذه الدائرة التي قضى عمره في خدمتها، كما كان يكرر دائماً، وكيف أحترم الرؤساء، وألبي أوامرهم أياً كانت.

- أنت هنا، جدار، أو طاولة، أو قلم، في هذه الدائرة!

- إنسَ من تكون حتى نهاية الدوام!

كنت صامتاً أتلقى أوامر خطبته الرعناء بشعور مختلط من الإذلال والفوز. لم أكن آبه لخطبته، لكنني كدت أخاله يصفعني في آخر كلامه كسلفة على العمل، حتى خشيت من التفكير في خيار أن أرد له الصفعة، أو أن أبتسم له وأعتبرها هدية من مربٍ يعلمني أصول العمل، العملَ الذي أخاف أن أفقده قبل أن أبدأ،

لأعود إلى الشوارع المشمسة، والبيت الذي لا يتسع ظله لكل أفراد العائلة!

أكداس من الأوراق عليّ تسجيلها كل يوم؛ أوراق تأتي بالبريد، وأخرى يأتي أصحابها من قرى ومدن بعيدة للحصول على رقم الورود، ولينظروا إليه بعد أن أدمغ لهم الختم وأدون التاريخ مع الرقم. ينظرون بابتسامة وسرور، وربما يدعون أصدقاءهم إلى مأدبة بمناسبة الدمغة الأخيرة التي نالتها أوراقهم، وبعضهم يذهب إلى أقرب هاتف عمومي ليبلغ عائلته، أو أصدقاءه، بأنه والحمد لله، وبعد سفر طويل، حصلت أوراقه على رقم وتاريخ، وما على الوسطاء إلا التحرك نحو الهدف الذي جندهم لأجله.

الأهم من كل تلك الأكداس أن أبقي عيني على الباب المقابل. يجب ألا أغفل لحظة واحدة عنه: من يدخل، ومن يخرج. كم يبقى الداخل، وهل يخرج مبتسماً، أو مكفهراً. كنت أسجل الأوراق وأنا ذاهل عنها بالباب، غير آبه بما يكتنف أصحاب الأوراق من شوق للحصول على النتيجة التي يأملونها من أوراقهم، تماماً مثلما كان الموظفون الذين استقبلوني بقرف غير آبهين بهدفي قبل الحصول عليه أخيراً.

كان ثمة من ينظر إليَّ من الطاولة المقابلة. أكداس الأوراق أمامه أقل، لكنه لايرفع عينيه عن طاولتي المعدنية المطعوجة طوال النهار، وحتماً ثمة من ينظر إلينا ولايرفع عينيه عنا من مكان خفي، أو عبر غرفة مقابلة، أو بطريقة ما مبتكرة لا ندركها، لكنه حتماً مُلمٌّ بكل ما نفعل، بل وبما يختلج في نفوسنا.

عندما أتحرك، أو أذهب إلى الغرفة المقابلة، أو حتى إلى دورة المياه، أشعر بآلة ضخمة من العيون تستدير يميناً و شمالاً مثل مسننات ساعة قديمة، أو رسم ميكانيكي قديم ينقل الحركة من جانب إلى آخر. أحياناً أستمتع بالحركة، وأتعمد إثارتها. أتخيل صوت الصرير الناتج عن صدأ الآلة القديمة الضخمة. أتعمد إتعابها بحركات غامضة، أو بالتوقف مع مراجعين عابرين لا شأن لي بهم، فقط لأثير مزيداً من الدوائر على وجه المياه الراكدة حولي، أو أن أعود من دورة المياه بإشاعة كاذبة اصطنعتها، وأدعي بأنني سمعتها في الممر؛ إشاعة من ذلك النوع الذي لا يثير ألماً، أو لا يجعل آلة العيون الضخمة تتحرك بعنف، أو تلجأ إلى التلفونات، أو وسائل الاتصال المتفق عليها مع الجهات الراعية لكل قطعة من آلة العيون التي تمتد بدورها إلى جهات ترعاها وتحميها وتزودها بالنقاط الرئيسة الواجب التركيز عليها.

لكنني سرعان ما أعود إلى أكداس الأوراق لتهدأ آلة العيون، وتعود إلى استقرارها الآلي مع ابتسامات متبادلة من قبل كل الأطراف التي يراقب بعضها بعضاً.

* * *

كان اليوم الذي انتقلت فيه إلى مكتبه يوماً غامضاً، فقد اختفت أكداس الأوراق، واختفت متعة تأجيل طلبات المراجعين، أو إطالة مدة انتظارهم ريثما أؤجلهم مرة أخرى. كان خروجي من دائرة العيون المحدقة ببعضها طوال اليوم أمراً مؤثراً. لقد اكتسبت شيئاً من الحرية، وصار بإمكاني التنقل من مكان إلى آخر وفق أوامر المكتب.

ليست المرة الأولى التي أراه فيها، لكنها المرة الأولى التي أشعر به وهو يتعرف إليّ بدقة من خلف نظارته السوداء. كانت مهمتنا هي نفسها، مراقبة كل شيء نمرُّ به، أو كل شخص يدخل، أو يخرج، أو يأمرنا بالذهاب إليه.

اتسعت حلقتنا، وصرنا أشبه بعيون متحركة يقودنا من مكان إلى آخر. يتبادل هو الحديث مع الآخرين، ويسألهم عن أحوالهم وحياتهم، لنتلقف الأجوبة بآذاننا، والملامح بعيوننا. إننا أشبه بسجلات متحركة، دائمة الحركة، لكن الجديد في الأمر أننا لم

نعد ننتهي من دوامنا طوال اليوم، إذ ننتقل من مكان إلى آخر، ومن مدينة إلى أخرى، ونظهر بملامح تجار جملة حيناً، وتجار عقارات حيناً آخر، ووسطاء أو سماسرة لرجال كبار، أو نتقنع بتمرد مفترض شديد السرية، ونبحث عن أدنى إشارة موافقة عليه، أو مجرد صمت، أو حتى رفض بارد، إذ إن الرفض المباشر والحاد لا يذهب بصاحبه إلا فترة محدودة إن لم يكتبه خطياً لجهات تسهر لاستقباله ضمن جيشنا الذي ينتشر في طول البلاد وعرضها، الجيش الذي يحتاج إلى مزيد من الناس، فالحاجة إلى التوسع لا تنضب أبداً، والجيش المخلص أيضاً يراقب بعضه بعضاً، ويقرأ بعضه بعضاً، وعليه اتخاذ ألوف القرارات كل يوم لتصويب جهاز العيون الهائل الذي يستدير برشاقة وجبروت عبر البلاد جميعها، ويدخل في عالم من التأمل اليقظ، وليس التأمل الكسول الذي لا ينتج غير الأوهام والأفكار السخيفة.

* * *

كانت الأوامر واضحة دائماً.

كانت الأوامر ألا نندمج في ما نتمثله، أو نتظاهر به، فإذا تحدثنا كتجار بناء، يجب ألا نفكر بالعقار نفسه الذي نتناقش فيه مع الطرف الآخر، بل يجب أن نفكر فقط بمراقبته. كذلك

إذا تعرفنا إلى امرأة، يجب ألاّ تعنينا أنوثتها، أو كلماتها، أو ألوان ثيابها، فرغم كل ما نبديه لها من حب وتوله وإعجاب بأناقتها، أو أفكارها، أو لباسها و جسدها، يجب ألا نترجم الكلام إلى أفعال، بل يجب أن نتقن دور الحب بدون حب يفسد مهمتنا الجوهرية الدائمة.

وهكذا، صرنا نسافر وننام في فنادق، ونسهر ونمشي مع الفتيات والنساء، ونتجول كالسياح في أوساط المدن، أو في حواريها اللائذة، لكن دون أن يعني ذلك أننا نزور هذه المدن، أو أننا أحببنا تلك الفتيات، أو ارتحنا إلى أولئك الأصدقاء، أو تمتعنا بذلك الطعام اللذيذ. حتى أننا لم ننتعش بركوب تلك السيارة الفخمة التي أقلتنا في رحلة الصيد مع رجل عذب ونحن نقول له: إننا من قبل أخيه المهاجر خارج البلاد. لكن رئيسنا يومها اندمج مع الرجل، وأعجب بأفكاره وحيويته. وعندما شرب، انطلق مغنياً، وأطلق طلقات كثيرة في السماء دون طيور يقصدها، كأنه يقصد إطلاق النار على أفكاره التي تخرج من رأسه، أو على أوامر يتمرد عليها بعد طول التزام بحذافيرها. وعندما أثقل في الشراب، وفقد توازنه تماماً، كان يبدو كأنه يشرب للمرة الأولى في حياته، رغم كل الخمارات التي دخلها وشرب فيها، أو كأنه اليوم فقط سمح لنفسه بالشراب، أو بتذوق الشراب، أو أذِنَ لجسده بالتفاعل مع الخمر

الذي يسري في دمه، أو كأن ما شربه طوال خدمته السابقة كان يعبر جسده كما يعبر سائل أنبوباً يتدفق من الجهة الثانية دون تأثير يُذكر!!

سحبناه بعيداً عن مضيفنا، وهو يتحدث بتدفق عن مهامه السابقة، وعن أسماء الرجال الذين أودى بهم، أو أوعز بتدميرهم. وعندما خلع نظارتيه السوداوين أمامنا، أرعبنا منظره، فقال إنه تسبب بقتل ثلاثة من أبناء عمومته بوشاية عابثة منه، لكن الأوامر كانت شديدة القسوة عليهم:

- كنت أظن إنهم سيضربونهم ويعيدونهم!

لكنهم أطلقوا عليهم النار في الشارع، وقتلوا أخي معهم بالخطأ. كانت البلاد تحتاج إلى ذلك الحسم لإنقاذها كما قال له الرؤساء يومها! بعدها لم يعد الأمر صعباً، بل أصبح لذيذاً.....

وقبل أن يسرد أسماء الذين شارك بقتلهم، وصلت الأوامر باصطحابه إلى المقر الرئيسي، فالإدارة متشوقة للقائه الأخير!

❑❑

صداع !

هذا الصداع يفلق الأشياء حولي!

ما إن أنظر إلى الكرسي المقابل حتى يتفتت، الجدار المقابل، الأثاث المتناثر هنا وهناك..

اللوحة تتحول إلى موزاييك، الناس الذين أقابلهم ينشطرون بشكل تلقائي إلى قطعتين، أربع قطع،

ثمان قطع وهكذا.. حتى يتفتتوا تماماً، لكنهم يستمرون في حركتهم وكلامهم، وكأنهم يؤدون اللحظات الأخيرة قبل أن يتساقطوا!

صرت أخشى على الناس والأشياء من التفتت، فالقاعات تتشرذم، والكراسي، وأحاديث الخطباء يطالها التصدع.

كل شيء يتصدع أمامي، كل شيء!

وكلما عاودتني صورة ذلك الشقي، ينفلت الصداع بهياج، يفتت رأسي إلى قطع متناهية الصغر، ثم يتجه إلى كل شيء حولي، إنه يفتت حياتي!

يطل علي، يقترب مني، بوجه ضاحك. ثمة بقايا أثر من أحمر شفاه على قميصه. أكاد أشم رائحة البيرة التي احتساها قبل أن يذهب إلى صاحبة أحمر الشفاه. يبدو نشواناً بمشيته البطيئة الواثقة، وكأنه يعرف تأثير اقترابه مني. الصداع المجنون يؤجج الألم في رأسي. يقترب أكثر، فألتمس مسدس المكاروف الذي في درج الطاولة. أضع أصابعي عليه، وأنا أرقب اقترابه. سوف أقتله مرة أخرى إذا اقترب أكثر من ذلك. إنه يبتسم. يرفع صوته بأغنية فيروزية خفيفة وهو يتمايل من أثر الحب والبيرة!

* * *

آثار السواد على نهايات أصابعه جعلتنا نشك فيه، فلم يكن ثمة دليل ضده غير هذا. راجعنا حجوم بيع الورق الأبيض في المنطقة، وجمعنا أصحاب السوابق الذين ظلوا على قيد الحياة، ممن ضبطت لديهم آلة كاتبة، أو آلة نسخ غير مرخصة، أو سبق أن وزعوا منشورات، ولو قبل عشرين سنة. نحصر الأشياء تماماً، ونتأكد منها، ثم يعاود فريق آخر جمع تحرياته الكاملة لتتطابق النتائج تماماً. لكننا في الصباح نفاجأ بالمنشورات تملأ الأسواق والحارات الخلفية. منشورات بيضاء متطايرة تطلق أحلامها السخيفة إلى كل زاوية، فتتطاير البرقيات ودعوات الاجتماعات العاجلة لتنفلت فيها ألسنة المسؤولين الغاضبين وتهديداتهم التي تترجم ما تلقوه من تهديدات وتلويحات بمصائرهم!

يومها، رأيته في حانة صغيرة. شرب زجاجة بيرة مثلجة وخرج. خرجتُ خلفه، فدخل حارات ضيقة تتلوى تشعباتها، توقف في الزاوية، فاقتربت منه. لم يكن هنالك بد من الاصطدام به، فقد قررت تنحيته عن الطريق علنا نحل العقدة. أخرجت مسدس المكاروف وأطلقت النار عليه، فسقط على الأرض. رأيت جرزة الحشائش التي كان يحملها في يده تتناثر، فبدت الورود التي كانت داخل الأغصان الخضراء الغامقة، شخصت فجأة بوجهي، كانت وروداً صفراء وحمراء تلمع ألوانها قرب الجسد الذي بدأ

يتحول إلى جثة، حتى بدت كأنها ترافق رحلة الجسد المسجى قربها وتزينه ببريقها الذي لم يعد لدي الوقت لدهسه، أو لإطلاق النار عليه، كان المنعطف قريباً، فابتلعني بسرعة.

قفزت فوق مجرى مجرور مكشوف، واختفيت في منعطف آخر يؤدي إلى منعطفات تمحو آثاري، فلم يبق غير جسده وجرزة الحشائش والورود التي تناثرت حوله!

* * *

كنت قد تسرعت قليلاً بتصفيته!

لكنني وجدته فجأة، و كان لا بد من التصرف معه. كان ينبغي أخذه إلى أحد الأقبية الكثيرة التي نملكها في كل زاوية، لكنني أطلقت النار عليه، استمتعت لحظتها، وشعرت بالانتصار. اتصلتُ بالمركز وأخبرتهم، ففرحوا كثيراً. ولكن سيل المنشورات لم يتوقف في الصباح التالي!

تنقلتُ من مكان إلى آخر، ومن منصب إلى أعلى، لكن وجهه ما يزال يقترب مني. ينظر إليّ بثقة ولامبالاة تغيظني، ويقترب مني أكثر فأكثر عبر السنين. استعدت نفس المسدس الذي أطلقت النار به، سوف أطلق النار عليه ثانية، لن أتركه يتبجح أمامي بسعادته.

سوف أضع حداً لهذا الصداع الذي يشع منه، ويخترق حاجز الموت ليفتت حياتي والأشياء التي حولي.

* * *

هذه الأيام صار يقترب مني أكثر!

كأنما اكتشف تأثيره عليّ. آثار الطلقات على رأسه وصدره وجرزة الحشائش التي كانت متناثرة حوله أعاد تنسيقها لتعود باقة ورد من جديد. يرفع رأسه بأبهة المنتشي ويقترب مني أكثر. أمد يدي إلى المسدس، أتحسس معدنه الصلب، وأضع إصبعي على الزناد. يقترب على سجادة المكتب، لكنه لا يمشي! فقط ينسحب باتجاهي، كأنه لوحة طولية تتقدم نحوي. أرفع المسدس من الدرج قبل أن يمد يده إليّ. أطلق النار، أطلق مرة ثانية وثالثة!

ثمة دماء على زجاج المكتب أمامي!

الأوراق تدمى من أطرافها، الزجاج يسمح للدم بالمسير الهادئ على سطحه الأملس.

أنظر إليه. إنه يبتسم، وآثار أحمر الشفاه على قميصه، ورائحة البيرة تعبق حوله. لكن لاوجود لآثار الطلقات عليه. أضع يدي على جبهتي فأراها مليئة بالدم.

- إنه دمي!

لقد قتلني بالمسدس نفسه الذي قتلته به!

أرتاع من منظر الدم الصامت على الزجاج، هاهو يقف فوقي كغيمة. لعله ينتظر لفظي لأنفاسي الأخيرة ليضع جرزة الحشائش التي في يده عليّ!

❐ ❐

اللقاح القرمزي

تناولنا اللقاح جميعا !

ذلك اللقاح القرمزي الداكن تناولناه جميعاً!

انبثقت السيارات باتجاهنا فجأة! كنا نأخذ درس رياضيات عن المثلثات ورسم الدوائر فيها ، وكان الصف المقابل يدرس قصيدة شعرية لامرئ القيس

أو لطرفة بن العبد، لا أذكر ذلك جيدا، والصف الآخر كان يستمتع بدرس الفراغ الذي لا يأتي مدرسه أبدا بسبب انشغاله الدائم بالاجتماعات والدعوات وما إلى ذلك من تبريرات يرددها أمامنا متفاخرا بأهميته وأهمية المرحلة التاريخية التي تمر بها بلادنا كما كان يردد وهو يزهو بطقمه البطيخي وكرافته العريضة ذات الألوان المتنافرة وحذائه اللامع رغم أن أسفل البنطال يغطيه دائماً وكأنه سالت أو تم تفصيله على هذا النحو الرخو تماما مثل رخاوة الأحاديث التي يرددها مدرسنا الذي لا يأتي إلا نادرا!

خلال خمس دقائق كانت السيارات تملأ ساحة مدرستنا، سيارات بيضاء وسوداء، كبيرة وصغيرة خرج منها رجال ونساء بعضهم يرتدي قمصان التمريض البيضاء وبعضهم يرتدي لباسا عسكريا أو لباس شرطة أو لباسا شعبيا، الجميع انقضوا علينا بإبرهم المرفوعة إلى الأعلى التي يغرزونها في سواعد الكبار أو جوانب مؤخرات الصغار التي تفتضح أوساخها وروائحها مع صراخهم وبكائهم وفوضى الاستعجال الذي يجعل الجميع متوترا، إذ يصيح المسؤولون على مرؤوسيهم والمرؤوسون على معلمينا والمعلمون يصيحون علينا في عصبية جماعية شلتنا تماما إذ لم نعرف حينها ما هو هذا اللقاح ولا ما هي فائدته ولم يعطنا مدرس العلوم نبذة عن أهميته ومن اخترعه وما هي آثاره وواجب الالتزام بأخذه من

قبل أهلنا وأقاربنا ومعارفنا وما إلى ذلك مما يجيد معلمونا الاسترسال فيه لينهوا الحصة الدرسية!!

في غضون نصف ساعة كان الجميع قد أخذ اللقاح!

رمى الرقيب آخر إبرة بلاستيكية كانت بيده ودفع الطفل الصغير الذي كان راكعا على رجلي الرقيب غير مبال بصياح الطفل ولا بافتضاح قفاه، وقف الرقيب وعدل من وضع البندقية على كتفه وصاح على الجنود المرافقين أن ينتظموا في صف أمام الشاحنة العسكرية الضخمة والتفت إلى المرضين والمرضات وأفراد الشرطة ومرافقي الحملة الذين ساعدوا جميعا بضرب الإبر ليأمرهم برفق للركوب في السيارات التي أقلعت محركاتها دفعة واحدة وانطلقت تاركة الصغار يتصايحون والكبار يتفقدون أماكن الوخزات التي نالتهم خلال الدقائق التي أذهلت الجميع!!

لم نعد إلى الدراسة ذلك اليوم، المعلمون أيضا كانوا مذهولين إذ تم تلقيحهم أيضا في غرفة الإدارة حيث نودي عليهم اسميا ودون ألقاب وخرجوا إلى بيوتهم دون أن ينظروا إلينا غير عابئين بالصياح ولا بالأوامر المتضاربة حولهم،تجمدت قرائحهم التي كانت تعج بالشعر العربي القديم والحديث والأمثال و طرائق الإعراب والمثلثات والدوائر والمركبات الكيميائية التي تتمازج وتتفصل عن بعضها،

ترك أستاذ الكيمياء شعلة النار وحدها ، محاطة بأنابيب الاختبار الملوثة بالمحاليل الملونة ،وأستاذ العلوم غادر الضفدع الذي كان يعده للتشريح في الدرس التالي مفتوح الصدر وقلبه ينبض بانتظار الطلاب الذين لن يأتوا للتفرج على قلبه وأجزائه الداخلية الأخرى، بعد قليل سيصحو الضفدع عند انتهاء أثر المخدر الذي استنشقه ويتلوى وحيدا في المخبر المهجور حتى تنضب قواه من الألم والنزف المستمر حتى آخر ثانية ، لن يرجع الضفدع إلى الحقل الذي جاء منه حتما وفي كل الأحوال جاء ليموت ولكن أحدا ما لن يتفرج على أعضائه الداخلية وهي تنبض بين غفوة المخدر و إرادة الاستمرار حتى آخر لحظة!!

عندما خرج كبير الممرضين قال للمدير الذي تم تلقيحه خفية بعد خروج الأساتذة:

- سوف تشكون من ألم في الرقبة ،ألم خفيف لكنه سيستمر!!

تفقد المدير رقبته، وتبعناه بمد أيدينا حول رقابنا في حركة التفافية ناعمة، سخر ممدوح الطويل، وقال:

- كأنهم يلقحون الغنم!

ضحكنا جميعا، لكن السيد المدير فطن بعد برهة وصاح بصوت عال، يجمع بين حنقه على الحملة المفاجئة وحرصه على الانضباط وعدم فتح المجال لانتقاد الأعمال الرسمية أيا كانت ومهما كانت، كما كان يردد دائما!!

صرَفَنا المدير، وخرجنا مبكرين فلم نذهب إلى بيوتنا، استكشفنا الأسواق والساحات التي كانت ملأى بحملات التلقيح، أمام الجوامع، والمحلات التجارية،وعبر الحارات المؤدية إلى الأحياء الغنية والفقيرة، دوائر الدولة التي تلتف حول الساحة الرئيسية كانت تخضع للتلقيح، كان السائل القرمزي يتبدى لنا أنّى اتجهنا في السرينكات وفي العلب الكبيرة، وفي الملاعق البلاستيكية الشفافة التي يتم سقاية كبار السن منها، في سباق محموم مع الزمن كأن الوباء الذي يكافحه اللقاح في صراع يقاس بالساعات والدقائق، كأن إخبارية قد أكدت حلوله فجأة في بلدتنا الصغيرة النائية على أطراف البادية!!

* * *

خفّت الاضطرابات في المنطقة ولم نعد نرى الهجمات المسلحة على أطراف البلدة وعلى مخافر الشرطة ودوائر الحكومة المتحلقة حول الساحة الترابية الواسعة، كأنما الجميع ظل أسير صدمة

اللقاح القرمزي الذي خالط دماءنا ذلك النهار الخريفي المشمس بلا شطط في الحر وبلا برد يحيجنا إلى تبديل ملابس الصيف الخفيفة!

لكن ما لم ننتبه إليه مع توالي الأيام وتواتر الألم الخفيف في رؤوسنا الذي أوصى به كبير الممرضين عند نهاية هجمة التلقيح، أن رقابنا أيضا صارت تعاني من يباس يحنيها إلى الأمام،و تكاثف الألم في رؤوسنا ليغدو كرة معدنية صغيرة تتوضع في الجهة الداخلية لجبهة الرأس لتنحني الجبهة قليلا إلى الأسفل، لم نشعر بانحناءات رؤوسنا في البداية،لكننا سرعان ما أدركنا تزايد انخفاض رؤوسنا وانحناء رقابنا ، وذات يوم شتائي مثقل بالصقيع وبالصمت المطبق علينا كأنما منذ أزمان سحيقة! بدأنا بتجرع الحقيقة الماثلة في رؤوسنا وفي رقابنا كأننا سلالة هجينة بدأت تولد أخيرا استجابةً لطفرة أخذت مفعولها بعد آلاف السنين من الدأب الذي أنضجها برؤوس أبناء جيلنا الذي حلت عليه اللعنة!!

صرنا قامات مطعوجة من الأعلى، مثل آلات أعيد تعديلها لتناسب ظرفا جديدا ، رؤوسنا اختفت خلف أجسادنا المصطفة في ساحة المدرسة واختفت من نداءات مدربينا التي كانت تصيح بإلحاح :

- ارفع رأسك أعلى!

- أعلى يا بني آدم!
- اعتز بنفسك، أنت في آخر الصف!

وصار أساتذتنا يبدون أمامنا مثل رهبان دائمي الانحناء، بالإضافة إلى بطء حركاتنا وتأخر ردود أفعالنا فصار الأستاذ ينتظر قليلا بدافع من تلقيحه ونتيجة لتلقيحنا، ريثما يصله الجواب عن السؤال الذي طرحه، كأننا تحولنا إلى مخلوقات من ذوات الدم البارد، وصار لزاما على المدرسة إطالة الحصة الدراسية،لاستيعاب فارق السرعة التي خسرناها عندما كنا نرد بسرعة وصياح وشغب لننال السبق من أستاذنا الذي كان متحفزا لتلقي الجواب على سؤاله و لينتقل إلى السؤال الذي يليه بسرعة !!

تجلت مأساتنا عندما جاءتنا مجموعة من الطلاب من مدينة بعيدة لم ينلها اللقاح القرمزي، نظرنا إليهم، لم تكن رؤوسهم محنية ولم يكونوا بطيئي الحركة ولم يكن الألم يسكن رؤوسهم بوتيرته الدائمة!

وتفاقم الأمر عندما تزايد مجيء سكان جدد لم ينلهم اللقاح اللعين ليبدأوا بالهزء منا ومن رقابنا المحنية وردود أفعالنا الفاترة، ويتكتك الصغار أمامنا محاكين الألم الدفين في جماجمنا،

ويـصيحون علـى أبنـاء جيلنـا بمختلـف التـشابيه كالـسلاحف أو الخراف وصار من المألوف أن يصيح الصغار كلما مروا من أمامنا:

- ماع .. ماع!!

* * *

اجتمعنا مرارا!

لم نعد نطيق انحناء رقابنا ولا الألم الذي ينوس في جماجمنا بالإضافة إلى الشائعات التي تروّج لاحتمال انبثاق ذيول صغيرة أو كبيرة لنا بعد أشهر أو سنوات أو حتى لأبنائنا في المستقبل، كان لون اللقاح القاتم يملأ رؤوسنا وأفكارنا حتى تحول إلى مستنقع حالك يُغرق تفاصيل حياتنا!

كان الجميع حاضرا، أستاذ العلوم الذي ترك الضفدع ذلك اليوم مفتوح الصدر، أستاذ الرياضيات الذي ترك درس المثلثات والدوائر، أستاذ الكيمياء الذي خذل شعلة تسخين أنابيب الاختبار وأساتذة آخرون، وكل الطلبة مجتهدين وكسالى وأناس عابرون من ذوي الرقاب المحنية، كان اجتماعنا أطول من المعتاد، لكنه وجد خيطا يقود إلى مكونات اللقاح القرمزي اللعين!

❒ ❒

الأرخبيل

كان الصباح خريفياً هادئاً. لقد ولّت وطأة الحر، ولم تعد كتله الثقيلة تجثم على النفوس. ولم يعد الناس بحاجة إلى جهد كبير لاختراق علب القيظ الخالية من الهواء للذهاب إلى أعمالهم. كان الصباح هادئاً، يغري بالحركة ومغادرة البيوت للعمل،

أو للتريض، أو لأي شأن آخر. وكان الناس غير عابئين بإنذارات الشتاء الذي بعث رسوله الخريف، منذ أكثر من شهر، ليهيئ الناس بيوتهم ومؤنهم، وليتفقدوا صحتهم وصحة أولادهم، وليتفقدوا كل شيء في انتظار الشتاء القادم بعد هواء الخريف، الذي بدأ بإسقاط الأوراق اليابسة من أشجارها، لتقف عارية تماماً، رغم أن العري كلمة مفزعة في حياتنا، إذ نستعملها مغامرين بردة الفعل الأولى في لغتنا التي تتجنب الكلمات النابية دائماً، حتى ولو عنى ذلك عري النبات، أو الحيوان، أو الصخر، فالعري كلمة ينبغي الإقلال من استعمالها دائماً.

رغم الخريف وإنذاراته، فقد كنت أشعر بانطلاقة وخفة وأنا ذاهب إلى عيادة الدكتور عيسى. كان الشارع الممتد في قلب المدينة التجاري يوشك على الازدحام، فالتجار يتأخرون عادة في فتح محلاتهم التجارية صباحاً، ربما لأنهم يسهرون كثيراً. أجل لابد أنهم يسهرون إلى ساعات متأخرة، فالدوام الطويل من الصباح، حتى نهاية الدوام المسائي في التاسعة، يجعلهم غرباء عن منازلهم، عن أولادهم، و حتى عن زوجاتهم! فالعلاقة بينهم مقتصرة طوال النهار على الاتصالات الهاتفية، الحاجات، الرغبات، الأشواق يتم توصيلها عبر الهاتف. ونادراً ما يضطر صاحب المحل إلى ترك دوامه، وأخذ سيارة أجرة للذهاب إلى زوجته المشتاقة إليه، يقتنص ساعة

غـرام ولـذة معهـا بغيـاب الأولاد، أو الأهـل في أعمـالهم، أو بقـاؤهم نائمين إلى ساعات متأخرة، مما يجعل المنزل شبه خال، يمكن فيه قفل غرفة النوم ومطارحة الزوجة الكلام الجميل والمداعبات الهانئة التي لم تسمح سهرة الأمس بإتمامها لكثرة المشاحنات والطلبات والتعليقات والاتصالات الهاتفية التي تئد كل رغبة وكل خلوة.

هذه الغزوات النهارية تحدث مثل مواعيد العاشقين الذين تتاح لهم لحظة غير محسوبة للقّاء، لحظة بعيدة عن رقابة الأهل والأولاد والطلبات اليومية وتدفق المكالمات الهاتفية والمواعيد الحتمية التي لا بد من إنجازها، فرغماً عن كل ذلك يتواعدان، ويجدان نفسيهما عاريين تحت الفراش بعد دقائق، دقائق قليلة أو كثيرة حسب ما تقتضيه وسائل المواصلات.

* * *

كنت أشكو ألماً في عيني. قال لي أطباء عدة إنّ بصري في خطر. لم يجدوا مصدراً لهذا الخطر الماثل أمامي وأمامهم، كنت جزعاً وكانوا يمرنون معارفهم في اكتشاف المصدر، حتى عثرت على الدكتور عيسى، الذي أكد لي بأنه قادر على حمايتي من العمى، ووقف التدهور خلال ثلاثة أشهر! مما جعلني ألغي الأدوية التي كتبها لي الأطباء قبله، وأمتثل لتعليماته التي وعدني جازماً

بقدرتها على كسب التحدي ضد العمى الزاحف إلى عيني. راسل عدة مشافٍ عالمية، وبعث بفحوصاتي عبر البريد إلى عناوين شتى حتى لا يكون الوقت معركة باتجاه واحد، وحتى لا يكون الرهان كارثياً على بصري. بعدها، أكد لي أن الجواب شبه مؤكد، وأن العمى سيكون بعيداً عن عيني حتماً.

في ذلك الصباح، تأخر عن عيادته، تأخر كثيراً، حتى سئم المنتظرون وتبرموا من المواعيد المكتوبة على الجدار المواجه، وشعروا بالسخرية من حجة الممرضة عن مواعيد عملياته الصباحية، وعن الوفد الأجنبي الذي ربما وصل واضطر لاستقباله، وعن وعكة صحية ربما ألمت به مما يلم بالناس هذه الأيام، كريب أو ألم حاد يداهمه. يئست الممرضة، وذهب المنتظرون جميعاً، ولم يبق أحد غيري معها. كانت تعرفني، وكنت أحاول التقرب إليها دائماً، حتى ذهب آخر منتظر وبقينا وحدنا!

خرت على الكرسي متعبة. أسبلت جفنيها بهدوء، ووضعت يديها على أذنيها ناعمة بالهدوء من مناظر المراجعين، وأصوات احتجاجاتهم، وآلة التسجيل التي تبث أغانيها بشكل متواصل، حتى أضحت أغانيها مجرد ضجيج يتراكم مع ضجيج المراجعين

وأصوات السيارات التي بدأت تتزايد، حتى غدت طاغية على كل ركن وزاوية في العيادة.

شربنا القهوة سوية، كانت قلقة وكنت غير آبه.

ثمة مراجع يروح ويرجع. كان يلبس نظارتين سوداوين، ويسأل ببساطة مصطنعة، لم أكن آبه له أيضاً.

* * *

في الصباح، في ذلك الصباح الخريفي نفسه، الذي لم يصل فيه الدكتور عيسى إلى عيادته كانت أربع سيارات ستيشن بيضاء قد انطلقت في أربعة اتجاهات على طريق سيارة الدكتور الفيات الخضراء الفاتحة!

ثلاث من تلك السيارات ظلت واقفة في مواقعها طوال اليوم، وواحدة فقط اختفت بعد ساعة واحدة من تمركزها ناحية دوار الزهور، قرب الصيدلية المطلة على تقاطع الطرق التي يتوسطها دوار الزهور، الذي لم تنبت فيه أية زهرة. كان دواراً للتراب والغبار وبعض النباتات الشوكية، لكنه على أية حال كان دواراً يحكم تقاطعات الطرق التي تصب عنده!

عناصر الدوريات صدرت إليها الأوامر بالتواجد في الأماكن المخصصة، وهي موعودة بكنز تقبض عليه. تبدلت عناصر

الـدوريات ثـلاث مـرات ولم يـأت الكنـز. ظلـت سـيارات الستيـشن البيضاء الثلاثة وحدها المحافظة على أمكنتها. أما السيارة الرابعة فقد اختفت، لم يعد يراها أحد، تماماً مثلما لم يعد أحد يرى سيارة الدكتور عيسى الفيات الخضراء الفاتحة، التي كان يومها ينوي الذهاب بها إلى محل الصيانة للمعاينة قبل أن يسافر في المساء.

لقد قدر له أن يسافر في الصباح، وليس في المساء، وكذلك ليس إلى الوجهة التي كان ينوي الذهاب إليها، وإنما إلى وجهة سيارة الستيشن البيضاء، التي انطلقت به إلى حيث هو لايعلم، كذلك ممرضته التي شربت معها فنجان القهوة ظهر ذلك اليوم المتعب لم تكن تعلم شيئاً عن وجهته.

* * *

في اليوم التالي، أيضاً، جئت وشربت فنجان قهوة معها، وجاء أيضاً المراجع ذو النظارات الشمسية ليسأل متبالهاً عن موعد قدوم الدكتور؟

وفي اليوم الثالث، أيضاً، جئت وشربت فنجان قهوة معها، إلا أن المراجعين كانوا أقل عدداً، وصاحب النظارات الشمسية جاء فقط من باب الاطمئنان، وليس لفتح تساؤلاته المعهودة.

في اليوم الرابع، والخامس، أيضاً، وفي مطلع الأسبوع، ومطلع الشهر الجديد، كنت آتي وأشرب القهوة مع الممرضة التي صارت تشرد كثيراً، كأنها تفكر في البحث عن عمل جديد بعد اختفاء الدكتور الذي وعدني بوقف زحف العمى إلى عيني.

بعد شهر، جاء أحد المراجعين، وهو سائق تكسي عمومي، وقال إنه رأى سيارة الستيشن البيضاء التي أوقفت سيارة الدكتور عيسى. لقد قالوا له إن لديهم حالة إسعافية خطرة يجب أن يراها فوراً.

قال: أريد أن أصفّ السيارة أمام العيادة، وأبلغ الممرضة، فقالوا له لا حاجة، الأمر لا يستحق كل ذلك، فالمكان قريب، قريب جداً. وبعد أن أقلت السيارة البيضاء الدكتور بخمس دقائق، جاء من ركب سيارة الدكتور الفيات الخضراء وذهب بها.

يومها، لم أعد قادراً على شرب فنجان القهوة. أحسست أن كرة الظلام تتدحرج نحوي من مكان ما، من جهة ما، وعليَّ ألا أصطدم بها. كرة سوداء هائلة تتدحرج نحوي، لتغشاني وتدفعني بعيداً بعيداً في لجة أمواج صامتة من الظلام اللانهائي!

* * *

قلت لفاطمة (الممرضة): سوف أصاب بالعمى إذاً!

قالت: سيأتي الدكتور حتماً. إنه انتشل أناساً كثيرين من العمى. لا بد من أن يأتي! ثمة مصابون كثر بحاجة إليه، ومرضى كثر شفوا على يديه. لا بد من أن يتدخلوا للإفراج عنه، و لا بدّ أنه قد أبعد العمى عن أحد هؤلاء المسؤولين في موجة العمى التي ألمت بالبلاد. لا بدّ من أنّ أحداً ما سيأمر بإطلاق سراحه فوراً!

يجب أن ننتظر. إنتظر أنت معي في هذه العيادة. سأفتحها دائماً، ولو لأجلك!

كانت فاطمة قد حسمت أمرها منذ أسبوع بعدم ترك العيادة!

سوف تستدين لتعيش. سوف تمارس ضرب الإبر، والتضميد، للعموم، من أجل أن تستمر، لكنها لن تغلق العيادة مهما كانت النتيجة!

وأخيراً، جاء من يرشدنا إليه!

لم أكن أبحث عن أحد طوال الفترة السابقة، إذ كنت حبيساً بين قلقي على بصري، وتأملي للممرضة التي تقترب مني كل يوم أكثر.

جاء رجل من إحدى القرى النائية يقود ولده الصغير الموشك على العمى. كان يتحدث بصوت عال، مع أن العيادة لا تتسع لنبرة صوته المجلجلة. والصبي خلفه يخطو ببطء وصمت إلى العمى. كان

عنيداً وملحاحاً، وكان منظر ابنه لا يجعله يصمت للحظة واحدة. خرج إلى الشوارع، إلى عناوين المرضى السابقين، ليجوب المدينة كل يوم، ثم يرجع إلينا بكومة من الأخبار التي نناقشها؛ أخبار متضاربة، بعضها يوحي بالاطمئنان، وبأنه قيد الإفراج من أحد الفروع، وما عليكم إلا انتظاره بضعة أيام، وبعضها ينفي أية معرفة، أو أي خبر عنه، ويرجح أن جهة ما اختطفته لعله استغلهم، أو أعمى أحد أبنائهم بتعالمه وفذلكاته الكثيرة، أو متورط مع عصابة مخدرات انتقمت منه وأخفته عن الوجود!

لكن الرجل، والد الصغير الزاحف إلى العمى، لم يكن ييأس، كان يغرف من العناوين الأنباء تحت وابل من احتجاجاته وأدعيته، وكان منظر الصغير الصامت دائماً عكس أبيه المندلق صوته بشكل لا يهدأ!

كنت طوال النهار أتأمل فاطمة، كأنما أودع قدرتي على البصر، وكانت طوال النهار أيضاً تقلّب معي الاحتمالات.

كانت تحدثني عن نفسها، عن غرفتها، عن بيتهم الغارق بأنهار المجارير. لاتصدق متى يطلع النهار لتهرب إلى العيادة، تاركة إخوتها الصغار وأمها في جزيرة تحفها المجارير. تنطلق كل صباح منذ السابعة باتجاه العيادة، وأبكر مما هو مطلوب منها. كانت

العيادة عشها، حياتها، نافذتها على الوجود، تشعر بأنها في أطيب حال عندما تكون في العيادة. تطل من بلكونها الصغير على نهر السيارات والمحلات والزبائن والصخب اليومي للشارع التجاري في الأسفل.

كثيراً ما تلغي ذهابها في استراحة الظهيرة إلى المنزل، حتى لا تقطع أنهار المجارير أربع مرات يومياً.

* * *

كانت الصحراء أمامنا.

لم أكن أعي هذه الأبعاد. كان المدى بعيداً وخالياً إلا من الشمس وتموجات الأرض الخاوية. لقد عشت طوال عمري في شقة صغيرة لا تزيد على عدة غرف صغيرة!

أخذتنا سيارات البادية، وسلمتنا لبعضها. سيارات قديمة مهملة لا تلتزم بمواعيدها ولا بمسار سفرها. بعضها له مقاعد للجلوس، وبعضها عبارة عن شاحنات لنقل الغنم والماعز فيها ركن على الظهر لنقل الركاب، و سقف مكون من ألواح خشبية تسقف الجزء السفلي المخصص للحيوانات. كنا نجلس في الأعلى باحثين بأعيننا عن نهاية المدى الصحراوي الذي يمتد بلا أية معالم، فراغ محشو

بالضوء والغبار الذي يهب بشكل عصبي، ويختفي فجأة ليعود كل شيء إلى حجمه.

كنا نأكل رغيفاً حاراً من الخبز مع الماء، ونحن صامتين نحتسي المدى الذي يبهرنا باتساعه. صار الرجل صامتاً مثل ولده السائر إلى العمى مذ قررنا الذهاب إلى الموقع (ب111)، كأنما الرعب دبَّ في أعماقه، لكنّ منظر ولده الصامت يكبله عن الفرار برعبه، فيجد نفسه مربوطاً إلينا بسلاسل حديد ثخينة، ولا يفكر بالتملص منها، أو حتى بتحريكها، لئلا يوقظ حواسه بأصوات السلاسل التي تثقله.

ركبنا البوسطات وسيارات نقل العلف والحيوانات. أكلنا الخبز والماء، أو الخبز والبندورة، أو الخبز والعنب، أو التمر واللبن، أسوة بما يأكل المسافرون الذين يتناقصون على الطرقات متخلين عن إلحاحهم علينا لفهم قصتنا. استعملوا كل أساليب الحوار، بدءاً من السؤال عن الأعمام والأخوال، أو مكان السكنى، ليشكل قاعدة للانطلاق إلى حزمة أسئلة أخرى توصلهم للسؤال عن سفرنا المتواصل في طرقات البادية النائية.

كانت استقصاءاتنا قد وصلت أخيراً إلى وجود الدكتور عيسى في الموقع (ب111)، كما أكد معظم من عرفناهم، أو

سألناهم، أو من تردد على العيادة خلال الأشهر الذي قضيناها في العيادة بكامل ساعات دوامها الصباحية والمسائية.

لم نستطع الحصول على إذن من إدارة الصحة لمقابلة الدكتور عيسى لأسباب طبية. كان الموظفون يحيلوننا إلى بعضهم في سلسلة لا نهائية من الغرف المتوالية، وبعضهم يتصل فوراً بأرقام يدقها بسرعة، ويهمس مدمدماً كأنه ينقل خبراً طازجاً عن وصولنا. كانت الغرف مهملة، والذباب يحوم على الطاولات الملطخة ببقايا الطعام الذي ازدرده الموظفون وضيوفهم. الجرذان تتمشى غير قلقة على جلدها، ولا تدس رؤوسها الصغيرة بإرجاعها إلى الخلف لتغطي جزءاً منها بجلدها غزير السواد. مستخدمون دائمو التأفف، معظمهم نائم في زاوية، أو خلف طاولة، كأنه ينهب الوقت بالنوم لينطلق إلى أعماله الأخرى بعد الدوام ليبذل فيها قوته التي اكتنزها طوال النهار بالنوم على البلاط، أو المقاعد، أو على فرش المرضى!

لم يعرف أحد منهم الدكتور عيسى. أعطيناهم التفاصيل، ومكان العيادة، وأنه يعمل في هذا المشفى منذ أكثر من خمس سنوات، لكن أحداً لم يؤكد أنه عرفه، أو رآه، أبداً!

* * *

رمتنا شاحنة العلف التي كنا نجلس فوقها على مفرق واهن المعالم. أشار لنا السائق إلى الطريق بلهجته الثقيلة. كان كلامه مليئاً بأسماء أماكن يعرفها، ناسياً أننا نطأ المكان لأول مرة. تحدث بيقين ووضوح، كأنه يرشد أناساً ولدوا في هذا المكان!

سرنا في الفلاة. رأينا عدة شجيرات صغيرة متناثرة. بعدها انقطعت المعالم، وبدت الأرض مستوية لا يشوبها تل، أو وادٍ. وعندما اضطررت للخروج، تركت الرجل يسير هو وولده. عريت وسطي في الفلاة المسطحة وقرفصت، لم يكن يستر عريي شيء، ولا حتى شجيرة صغيرة، أو كومة أحجار، كان المدى أمام عريي، والهواء يلامس جسدي، يمسح العرق عن مسام الجلد الذي كان مغطى طوال الرحلة الطويلة. كان تيار البول يرسم ودياناً صغيرة تتشعب بقوة الاندفاع. لحقت بالصبي ووالده. لم يلتفتوا إلي، وإنما بطّؤوا مسيرهم قليلاً، فشعرت بالارتياح، وبالخفة، وأنا استعجل نحوهم. كانت الشمس تميل إلى المغيب، وعلينا وصول المعسكر قبل الظلام.

زجرنا العسكري الواقف على الحاجز. لم يرغب بسماع أية كلمة منا:

- انقلعوا مئة خطوة إلى الخلف!

رجعنا! أمرنا بالعد جهاراً ليسمع، وكان علي رفع صوتي أكثر كلما ابتعدنا عنه ليتمكن من السماع. جلسنا على التراب، عندما كان الغروب قد أتم طقوسه، ورغم أننا لم نتمكن من تأمله، لكن هواء المساء البارد أنعشنا قليلاً ونحن نتمدد في السهل الممتد. لم يكن الرجل قد عاد إلى رفع صوته. كان صوته دائم الخفوت، والصبي حاول اللعب بتجميع كومات متفرقة من التراب على شكل قبب مخروطية الشكل. كانت بقية الضوء تسمح له برؤية تلاله الصغيرة، وهو يدندن لنفسه كلمات أغنية غامضة لم أتبين معانيها. الرجل غفا، وأنا تمددت على ظهري، وصرت مواجهاً للسماء بشكل كامل الاستقامة، إذ لم أصنع من حذائي، بعد، وسادة تحت رأسي. كانت النجوم نقاط أمل وفرح وسط الظلام، وكانت السماء ثوباً أسود يتزين بالبريق الأبيض المتناثر المتلألئ بسحر يزينه عدم الانتظام. كان ثوباً جميلاً مثل ثوب أمي عندما كانت تحضنني إلى صدرها وتجعلني ألاصق نقاط البريق التي تسحرني وهي قادمة من بعيد. لعلي لن أكون قادراً على رؤية هذا الثوب بعد أشهر، أو بعد سنة، أو سنتين. لقد أكدوا لي جميعاً إنني سائر إلى هذا المصير عدا الدكتور عيسى، الذي بعث فيّ الأمل برؤية هذا الثوب الأسود الجميل، ثوب أمي الذي يخيم على العالم جميعاً!

في الصباح تفاجأنا. الشمس أزالت عنا ظلمة الليل وبرودته، فاستيقظنا متناثرين على التراب. كانت ثيابنا متسخة، والشمس تقرع بأشعتها على رؤوسنا، فتدفعنا إلى ملاذ يفيئنا بظله. مشينا باتجاه الحاجز، ولما كان الوقت مبكراً، زجرنا حارس آخر غير الذي رأيناه في المساء، وقال ارجعوا إلى مربضكم، وتعالوا في التاسعة حين وصول رئيس الحرس الجديد واستلامه المهمة.

وقفنا في البرية غير آبهين بالشمس والجوع العطش. كنا ننظر إلى المحرس. لم نكن نملك ساعة، فكنا نقدر الوقت بناءً على حركات الجنود وصياحهم، والأوامر التي تتناهى إلينا، علنا نخمن الوقت. كنا مشدودي الأبصار إلى المحرس، وكان الأمل قد عرّش في نفوسنا، وصرنا نحلم بمقابلة الدكتور عيسى، ليفحصنا ويكتب لنا وصفته، ويلخص حالاتنا، ويرسلها معنا إلى طبيب يثق به ليتابع علاجنا، مجنباً عيوننا الانطفاء الزاحف إليها!

قال الرجل: علهم يرسلونه معنا!

ابتسمتُ، واتسعت الحياة أمامي، فقلت: ربما يكون آمرهم طيب القلب ويعي مأساتنا ويرسله معنا. إنه مجرد طبيب تنتظره العيون!! ما الذي سيفعله غير إنقاذ الذين في انتظاره، علهم يرسلونه إلى سجن مدني نستطيع أن نراه كل أسبوع، أو يسمحوا لنا بدخول

السجن معه ريثما تتجاوز عيوننا الخطر. إنهم طيبون يا أبو محمد، والله سيرأفون بحال ابنك الصغير على الأقل، سوف يصيّحون قليلاً ويرضون، ربما يرسلوننا معه بسيارة من عندهم حتى عيادته ليمارس تطبيبنا فوراً وبلا تلكؤ. سوف ينتظره الجنود تحت العيادة ريثما يفحصنا جيداً بأجهزته الحديثة، ثم يعيدونه فقط لتسليم ما بذمته من لباس وأثاث منحوه إياه إبان إقامته عندهم. سيعدوننا حتماً بعودته نهاية الأسبوع، أو على الأقل سيرجعونه إلينا لساعتين ليعاود فحصنا. ثمة خطأ ما في سجنه، و لا بد أنهم سيدركون قيمته بمجيئنا إليه، وسوف يراجعون سجلاتهم ويكتشفون خطأهم. لابد أنهم الآن خلية نحل تبحث وتدرس وتتصل بالجهات العليا، و ربما وصلت الاتصالات الآن إلى أعلى المراكز! حتماً ستؤنبهم القيادات العليا، وتوبخهم على سحب مثل هذا الإنسان، فنكون نحن المغبرين المعفرين بالتراب قد كشفنا الخطأ، الخطأ الجسيم الذي ارتكبوه، أو لعله ارتكبه أحدهم من أولئك الآحاد اللامبالين إلا بالمكافأة التي يقبضها من سجن الناس. نريد أبصارنا، نحن نريد هذا الرجل من أجل عيوننا، لا تهمنا كل التفاهات التي سيعتذرون بها، أو يبررون فعلتهم، هذا شأنه هو، عليه أن يقيم عليهم دعوى في المحاكم، ويسجن المسؤولين عن ذلك العبث. نحن تهمنا عيوننا، فلاشيء عندنا يعادل إبصارها. كل الأبهة، وكل الرسميات، وكل

الأوراق الموقعة، أو غير الموقعة، هباء بالنسبة إلينا. نريد أن ينكفئ العمى عن عيوننا. أريد أن أرجع إلى فاطمة. أريد أن أقبّلها، و أن أسمع تأوهاتها الناعمة وأنا أضمها إلى صدري، أريد أن أستمتع بالنظر إلى وجهها دائماً، وأن أنظر إلى ثدييها الصغيرين، وأن ألمسهما بأطراف أصابعي. أريد أن أراها دائماً. قالت لي عند عودتك مع الدكتور عيسى سنذهب إلى أهلها. أبوها سيوافق حتماً، لأنه سيتخلص من فم يأكل وفتاة يقلق عليها وهي غائبة وهي حاضرة. يظل يتأكد من آثار المشي في ساحة البيت، ويتفقد سور البلوك خوفاً من أن يقفز أحد إلى الداخل وينسل إلى فراشها. لا يريد أن يداهمه العار في أية لحظة، و لا يحب اجتماع الجيران على صوت حرامي! حرامي! وهو ليس حرامي! سوف يقولون ذلك، سواء كان حرامياً أو لم يكن، و سوف تكون فاطمة محط أنظارهم اللئيمة المتشككة. وإن حدث لهم شيء، فلن يكونوا أول من حدث لهم ذلك، ففاطمة التي يضرب بها المثل قد تورطت بعاشق ليل ينام معها. لم تشبع منه طوال النهار، بل دعته إلى منزل أبيها، و لعلها تريد أن تحطم كبرياءه، أو تريد أن تغمس رأسه ببحيرة المجرور المتجمعة في زاوية الشارع. تريد أن تنتقم من صياحه، من غضبه الأهوج، و تريد أن تضعه بين طأطأة رأسه أمامها، أو أن يقتلها ويبقى طوال حياته مطأطأ الرأس أمام السجان!

ليذهب إلى الجحيم هو وهواجسه وأحقاد جيرانه. سوف آخذ الدكتور عيسى الذي سيكفل عودة بصري إلى طبيعته، وسيسجل اسمه شاهداً على ورقة الزواج. إنهم لا يدعونها كذلك، بل تسمى عقد نكاح! فرغم التحفظ الشديد في حياة الناس وكتاباتهم تأتي الأوراق الرسمية شديدة الصراحة بالهدف من الزواج "الجماع"، وليس ثمة أمور أخرى غير الجماع!

* * *

طال وقوفنا إلى الظهيرة. كنا نحدق إليهم، وكلما أرسلنا الصغير يستفسر قالوا له بعد ساعة. كانت ظلالنا تمشي على التراب، تدور حولنا ونحن واقفين نتأمل حركتها. مساحتها تتضاءل وتنكمش حتى قاربت الاختفاء. عندها، نادانا الجندي من بعيد بكلمات زاجرة. رافقنا وهو يحتضن بندقيته، كأنه ينوي القضاء علينا في كل لحظة. سار خلفنا كأنه يسوق قطيعاً صغيراً من الماشية حتى وصلنا إلى غرفة صغيرة تركنا أمامها. وقفنا قرابة الساعة، و صار بمقدورنا الشرب والتناوب للوقوف تحت ظلال الأبنية، أو الجدران المتناثرة بشكل غريب، التي كانت أشبه بمتاهة. نادانا حاجب رئيس الحرس وأعطانا ورقة لمراجعة المفرزة (ب113). لم يشأ مقابلتنا، ولم يشأ أن يتحدث معنا بكلمة واحدة.

أرشدنا الحاجب إلى مكان المفرزة. اشترينا من جندي عابر معلبات وأطعمة نستطيع حملها معنا، وعبوة ماء كنا نتداور على حملها. المفرزة تبعد مسيرة خمس ساعات كما أخبرنا الحاجب.

مررنا بمفارز عدة. وكان ثمة أناس يقفون أمامها شاخصين بأبصارهم على بواباتها. أخذنا استراحات متفرقة معهم، وتبادلنا أحاديث عابرة.

كانت المفارز تتبدى لنا كلما أوغلنا في المسير. بعضها مشكل من بضع براكيات لجنود، وبعضها ممتدة بأبنية وبطرق مزفتة، والمتوقفون أمامها نصبوا الخيام البيضاء القماشية. حتى مررنا بمفرزة كان أمامها حشد من الخيام يتوسطها سوق لبيع الطعام والشراب، وكل ما يُعين على الانتظار. وكلما أحالتنا مفرزة إلى أخرى تبدى لنا الأرخبيل الممتد من المنتظرين؛ أمهات يشخصن بأبصارهن وكأنما بشكل أبدي إلى بوابات المفارز، كأنهن لا يذهبن إلى نوم، أو طعام، أو شراب، أو حتى للتبول. كانت النساء دائمات التحديق بانتظار أبنائهن، أو أزواجهن، أو إخوتهن، وثمة رجال من الآباء، أو الأخوة، أو الأبناء، يقومون على خدمتهن وهن أشبه برادرات دائمة الرصد. عيونهن أشبه بأضواء نجوم الليل التي تشع على الطرقات المؤدية إلى حيث أحبتهن.

الصغير الذي معنا لم يعد يدرك معالم الطريق، وأبوه كان دائم البكاء. لم يعد يثرثر، أو يأكل، أو ينام. الصغير صار يرفع صوته عالياً، إنه لا يرى، كأن قماشاً أسود ينسدل على عينيه، فكان يصيح في الدروب الخاوية التي كنا نقطعها إلى المفرزة (ب903)، التي أكدوا لنا جميعاً أن الدكتور عيسى قد يكون فيها. كان الصبي يصيح: إغسلوا الماء الأسود عن وجهي، أرجعوا الخام الأسود عن عيني. كان يجأر غير آبه بصياح الجنود، أو أوامر ضباطهم بضرورة إخراسه.

كان الصبي يبكي. يرفع صوته عالياً إلى السماء العالية، كأنما يرسل صوته إلى مكان ما، إلى مخبأ ضائع أو عصي على الاقتحام. كان مصراً على الصراخ طوال الليل والنهار، حتى بُحت حنجرته، وصارت عيناه حمراوين، وسيل الدموع صار قطعة من وجهه.

كنت ألتحف الصمت، وأحث الخطى باتجاه المجهول الذي يرسلنا من مفرزة إلى أخرى. هذه الجزر التي تملأ الصحراء أرخبيل هائل لا تصل إليه السفن. صرنا نتجنب المرور بصفوف الأمهات المنتظرات، حيث ثمة صوت عميق من البكاء، ونواح خفي ينتظم صفوف المنتظرين. كان الجنود يروحون ويجيئون، والضباط يركبون السيارات الأنيقة كأنهم يمرون بأسراب النمل أو الجراد.

كان الأوقيانوس يبتلعنا، ولم يعد لدي غير ذكرى وجه فاطمة المنتظرة في عيادة الدكتور عيسى. اشتقت إليها كثيراً، وأخشى أن أفقد بصري قبل الوصول إليها. مشتاق إلى فنجان القهوة الصباحي معها، وإلى أصوات تلفونات المحال التجارية تحت العيادة، ومناظر تلمظهم وهم يعودون من مغامراتهم الصباحية قبل أن يبدأ ازدحام السوق.

لكنني لن أيأس. أريد بصري، ولا بد من أن أجد الدكتور عيسى قبل أن يتوارى النور عن عيني وأصرخ كالصغير. سوف أجد نهاية لهذا المحيط المتماوج بالمفارز وحشود المنتظرين لأحبائهم.

كان الرجل وولده لايزالان يرافقانني رغم عمى الصبي تماماً. الرجل العجوز يمشي هائماً على وجهه، ولا يريد أن يفكر، أو أن يقلّب الأمر. كان منساقاً خلفي مع صبيه الجاعر. قلت له أن يأخذ الصبي بسيارة تسافر في صباح اليوم التالي، ويرجع به إلى المدينة. لم تعد تنفعه مقابلة الدكتور عيسى، أو على الأقل سوف لن تجدي نفعاً مادام الصبي قد أظلم بصره. لم يرد. لم يوافق ولم يرفض. كان يمشي معي ونحن نعبر من مفرزة إلى أخرى، علّ أحداً ما يجعلنا نقابل الدكتور عيسى في هذا الخضم اللانهائي من الأضواء والظلمات والطرق الصحراوية التي لا تشي بنهاياتها.

وسط الظلمة، لمع وجه فاطمة أمامي مثل نجم غريب، نظرت إليه بفرح. كان ضياؤها يملأ عينيَّ، ويتسلل إلى زواياها البعيدة:

- حقاً. ليتني أستطيع رؤيتها قبل أن يداهمني المخمل الأسود الذي افترس بصر الصبي!!

❒ ❒

أعداء الرياضيات

كنا نلتقي في الباحة، نرى بعضنا من بعيد، ونتفاهم بالنظرات. لسنا في حاجة إلى الشرح والتأويل حول وجودنا وحيدين في ساحة المدرسة التي تركها الطلاب بعد قرع جرس الدخول، إذ نخرج من مخابئنا بعد دقائق من حلول الصمت على الباحة. واحد يخرج من خلف شجرة، وآخر من خلف المطعم، وآخر، وآخر،

حتى نجتمع ونتوزع في مجموعات، نحن أعداء الرياضيات الهاربين من وطأة مثلثاتها وأعدادها المتداخلة.

كانت مجموعتنا تجتمع في مكان ضائع خلف أشجار المدرسة، لنمارس هوايتنا في كتابة أنواع الخطوط، والتفنن في أدائها، و كنا نعتبر أنفسنا متمردين على الرياضيات، ولسنا كسالى كبقية زملائنا الهاربين، إذ لدينا هدف نملأ به وقتنا. أما الآخرون، فيقفزون خلف جدران المدرسة صوب الشوارع وضفة الفرات، إلى أن صرنا نتهمهم بملاحقة الكلاب والحمير الداشرة، وعزز اتهامنا لهم مشاهدة صفوان وهو يجر حماراً صغيراً بحبلٍ معدني جرح رقبته، فزدنا عليه الكلام حتى اتهمناه بأنه يبحث عن مكان لمضاجعة "الكر":

- على الأقل يا حمار لو أنك تجر كُرَّة، أو حتى حمارة، بدلاً من هذا الكر الأجرب!

* * *

بقينا طوال الشتاء نجتمع غير آبهين بالبرد، ولم تخطر ببالنا لذة الصف الدافئ المتلئ بصمت الطلاب وأرقام أستاذ الرياضيات المتداخلة، وصارت كلمة السر للتفاهم بيننا:

- حمار؟

- بالرياضيات!

سقط البعض منا مرضى من أثر البرد، وتراجع بعض المترددين وعادوا إلى دفء الصف، أما نحن الثلاثة فقد التقطَنا مسؤول الوحدة الطلابية!

أمسكَ بنا في زاوية المدرسة نخط أبياتاً من الشعر، ونتحدى بعضنا بخط الرقعة، وأينا يؤديه بشكل أجمل، رغم إنه خط مألوف وسهل. فاجأنا المسؤول بالقبض علينا نحن الثلاثة في لحظة واحدة، لم يتمكن أيٌ منا من الفرار إلى زاوية سور المدرسة المعدة لسرعة القفز إلى الخارج!

أمسك صفحة الكرتون الواسعة، وصار يقرأ أبياتاً غزلية حفظناها من قصائد الشعر التي ندرسها:

- أين صور (السكس) التي لديكم؟!
- والله ما عندنا!
- كذابين.. أخرجوها بسرعة!

وبعد أن فتشنا جيداً تيقن أنه ليس لدينا أياً منها، وبدأ محاضرة طويلة حول أهمية المستقبل وحضور الدروس والوطن الذي ينتظر إنجازاتكم.

- يا كلاب.. يا خونة.. ماذا تفعلون هنا بهذه الكرتونة؟! ماذا تخبصون؟!

- نتدرب على الخط أستاذ!
- تدرب بعد الظهر في بيت أهلك يا سافل!

أمسك الكرتونة وتأملها قليلاً، وكأنه يأخذ استراحة من المحاضرة التي كلف نفسه بها.

- واللّه خطكم ممتاز!

أشرقت ابتسامة موحدة على وجوهنا.

- تعالوا معي.. تعالوا.

صرنا نترجاه ألا يأخذنا إلى المدير، أو الموجه، الذي سيُبلغ أهلنا.

- إلحقني ولاك!

وزع علينا رزمة من الكرتون الكبير، وأمرنا بكتابة أولى الشعارات التي بدأنا بها مسيرتنا معه!

تطورت العلاقة معه كثيراً، إلى حد أنه أعطانا مفتاح غرفته للمجيء إليها في أي وقت، أو في موعد أي درس لا يعجبنا!

في ذلك الشتاء، غدت مدرستنا قدوة المدارس في نشر الشعارات ولصقها على الجدران وفي الممرات، وتوسع الأمر معنا إلى الشوارع الجانبية، حيث نشرنا صور الزعماء مع خطوطنا الجميلة التي تمجدهم، وتمجد خطواتهم التي يقودون بها الوطن!

* * *

عندما ترفّع مسؤولنا الطلابي بفضل نشاطنا، أخذته النشوة والحماس، وأمرنا ألا نحضر أي درس.

- هذه دروس سخيفة لا تورث إلا العقم، وأمتنا بحاجة إلى النشاط، سأملأ بخطوطكم الجميلة هذه المدينة كلها، وليعرف أعداؤنا أننا رمز للنشاط والنجاح!

وفعلاً، صارت أقلامنا الثلاثة توزع حبرها في كل زاوية وشارع، وتبشر الناس بالازدهار والسعادة بفضل قياداتنا الحكيمة، وما على الجماهير إلا قطف الثمار الموعودة!

وعندما عمت موجة برقيات التأييد بالدم، غمسنا أقلامنا في دماء المتطوعين، مسطرين صفحة جديدة في تاريخ فن الخط لم يعرفه الخطاطون الذين سبقونا، إذ اقتصرت أعمالهم على الحبر الأسود في معظمها، ولم تصل إلى السوية التي فاجأتنا في البداية، وهي الكتابة بالدم!

* * *

لا أعرف من أين جاء ذلك الصبي. طردناه أكثر من مرة، لكنه سرعان ما كان يبزغ وسط الغرفة المكتظة بالمتطوعين للتبرع بدمائهم من أجل كتابة برقيات التأييد والمؤازرة للقيادة. بعضهم يبحث عن منصب، وبعضهم له إضبارة قديمة ويأمل بأن

تطوى، وبعضهم لديه معتقل من أقربائه البعيدين يأمل ألا يحاسب مثل عائلة المعتقل المباشرة، وبعضهم لديه قريب مفقود يأمل بأن يراه لمرة واحدة، والزمرة الأخيرة هي من الأمهات والأخوات، وربما الأخوة الطاعنين بالسن، وكلهم يتقربون بدمائهم، يحلمون بريشتنا التي ستكتب بدمهم صكوك الخلاص، أو الأمل على الأقل!

لكن ذلك الصبي لم أتمكن من معرفة قصده، كان يمد ذراعه السمراء النحيلة أمامنا مطالباً بأخذ دمه لكتابة إحدى برقيات التأييد، لعله مثل أي طفل يحشر نفسه في الشقوق والمغاور ليستكشف ما هو مجهول بالنسبة إليه، أو ليعبث به كاسراً رتابة الحياة والإهمال الذي يحيط به، أو لعل عائلته كانت تقف بعيداً على الرصيف المقابل، في انتظار حصاد التبرع الذي سيعلي اسمها في الإذاعة والصحف، أو مما قد يساعد على غفران ذنوب أحد أبنائها، أو يساعد في ترفيع أحد المسؤولين الصغار من أبنائها، ممن يئسوا من بطء سلالم الترفيع العادي، فاعتبروا ذلك إهانة دائمة لعائلتهم!

لم أكن أجرؤ على ضرب الصبي المتهالك على التبرع، لأن عملي لا يحصنني من الشبهة إذا قدم شكوى ضدي، لكنني تجاهلته، حتى جاء مع أحد المسؤولين الكبار مثل أضحية يقدمها أحد الميسورين، قدمه لنا ليتبرع بدمه الشيطاني!

بعد أسبوع من تلك المناسبة مات الصبي!

لا أعرف ما أصابه، لكنه مات. رأيته أمامي ميتاً. تنصل مَنْ جلبه للتبرع من المسؤولية، و تم طي الحادثة بسرعة، بعدما كتبوا في شهادة الوفاة سبباً ما من الأسباب الكثيرة التي يستطيع الأطباء الطامحون ابتكارها لموت صبي نحيل بائس. غير أن المؤكد أنني تسببت أنا بوفاته. فقد أكون أخذت منه دماً أكثر مما يحتمل، أو أنني غمست في جسده إبرة ملوثة بدم متبرع سابق، فأودت بحياة الصغير...

أراه قادماً إليّ، حيثما مشيت، ووجهه الأسمر النحيل لا يفارقني. إذا التفت إلى جدار المدرسة المقابل، أو إلى شجرة التوت المقابلة لبيتنا، جدار البيت، خزانة الملابس البنية المخلعة المفاصل، صفحات الكتب، أدوات المنزل، كوب الشاي، الملاعق، خزانة الطعام، حتى أثر أحذيتنا على التراب في ساحة الدار صار يلتمع بصورة الصبي!

ذهبت إلى زاوية الشارع التي نصبنا فيها أكبر صورة، وكتبت تحتها أجمل خط كتبته في حياتي، هي ذاتها الزاوية التي صارت مزار المسؤولين والطامحين في الارتقاء على السلم الإداري بأسرع وقت. كنت أزورها سابقاً لأتمتع بمنظر الخط الذي كتبته

فقط، بقيت، حينها، أسبوعاً في تلك الزاوية آكل وأشرب وأنام عندها حتى أنجزت تلك الخطوط. وهاهو منظر الصبي يطل مطبوعاً عليها! لم أعد قادراً على زيارتها. كل الجدران، وكل الصور، كل كتاباتنا صارت مطبوعة بصورة الصبي، لم أعد أراها إلا كإعلانات عن الموت، أو إعلانات عن وباء غامض يجتاح المدينة.

فررتُ إلى القرية لأرتاح قليلاً من صور ذلك الشقي، فانطبعت أمامي على الجدار الطيني، حتى صارت تأكل وتشرب معي، وتقاسمني حياتي.

* * *

تشتت زملائي... عادل صار كاتب عرائض أمام دار الحكومة. وصبري الذي صار ملازماً لمسؤولنا الطلابي اعتُقل معه بتهمة التلاعب بأموال المنظمة الطلابية، وتهمة تقديم معلومات كاذبة ضد خصومهم في المنظمة الذين فازوا بقيادتها. ولا أعرف ماذا حل بصفوان، وغيره من زملائنا أعداء الرياضيات.

أما أنا، فما أزال أحلم بالتخلص من صورة الصبي النحيل الأسمر التي التصقت بحياتي!

❒❒

الرعيل الثالث

كنا من الرعيل الثالث الذي جاء إلى هذه المدينة. الرعيل الأول جاء من أجل حضور الأفلام الهندية أيام (شاشي كابور) و (راجي كابور)، ليرجع أفراده سكرانين بالمغامرات والمناظر الخلابة وقصص الحب البريء، و ليملأوا البلدة بأصواتهم الهندية الشجية، ورقصاتهم الطفولية المولعة بالأصل

الـذي يقلدونـه بـشغف كـبير. وليتحولـوا لاحقـا إلى تقليـد أفـلام الكاراتيه والجودو، والعصي المتفصلة على زرد معدني في وسطها تصرع الشريرين بخفة وأناقة. ثم إلى العنف الأمريكي الذي يتلذذ بمنظر الدماء والقتل الجماعي وألوهية (رامبو) الذي ينتصر بسهولة على الفيتناميين والصوماليين رغم إن الوقائع تبين عكس ذلك!

الرعيل الثاني جاء لينام في فنادق هذه المدينة التي تقدم النساء قبل أن تصبح هذه المهنة عولمية تحتلها مختلف الجنسيات من تايلندية وروسية وغيرها. هذا الرعيل كان يجرب المرة الأولى مقابل مبلغ بسيط، ليرجع أفراده رجالا لايقبلون الأحاديث التافهة عن الغزل، أو الملامسة، ولا حتى القبلة. وعندما لا يجدون ما يلبي السوية الجديدة التي وصلوا إليها، فإنهم ينزعون إلى القوة في ملاحقة الفتيات، ممن لهن تاريخ في اللامبالاة، ولم يكنَّ قد وصلن إلى المرحلة التي وصلوا إليها، أو يتلصصون، طوال الليل، على البيوت والغرف المهترئة، ليشاهدوا زوجين تخلصا من عبء التعب النهاري الطويل ومدّ، أخيراً، أحدهما يده إلى الآخر بعد أخذ كل الاحتياطات والإجراءات الاحترازية، من تنويم الأولاد، وخفض الصوت، والتدثر باللحاف، رغم الحر الشديد الذي يقتضي حتى نزع الملابس لتبريد الاحتراق الداخلي الذي يعتري الجسدين.

ومن يئس منهم، انحرف إلى مطاردة الأولاد، أو الحمير، أو معاقرة يده مع الصور التي رسخت في خياله من تلك الزيارة التي حولت مجرى تفكيره.

* * *

رعيلنا الثالث الذي واكب الأستاذ عيدو، كان سيئ الحظ، إذ عندما وصلنا المدينة لنأكل من كبابها، ونستمتع بخيراتها، كانت الدبابات قد وصلتها قبلنا، فملأت حواريها (طبعاً ليس بقصد تحرير فلسطين، كل فلسطين كما تقول الإذاعات يومياً)، ولن يتيسر لنا رؤيتها بلا عسكر حتى نتخرج من الجامعة بعد طول معاناة وتفتيش وهلع يومي لا تنضب منابعه.

جلسنا في الغرفة نناقش مصيرنا، فنحن لم نر الأفلام التي شاهدها سابقونا، ولم نعد قادرين على دخول الفنادق التي ارتادوها بعد دخول السنغافوريات والتايلنديات ممن يأخذن بالدولار. هذا عدا عن عدم انضمامنا إلى تلك المجموعة، لأننا كنا نوصف بالمعقدين، وهذا نصيب كل طالب ينكب على كتابه صارفاً نفسه عن ملذات الحياة اليومية من أجل نقطة مضيئة يتخيلها لنفسه في الأفق!

* * *

تغيب اثنان بسبب حصار حيهما، ووصل محمود بعد أن عبر ثلاثة حواجز رافعاً يديه، مسلماً صدره وأمره لحامل البندقية المقابل، حتى قال له آخر عسكري:

- انقلع يا حمار!

فكانت فرجاً ورحمة على نفسه، ووقفاً للاحتقان الذي كان يتزايد بيننا على الغائبين، الذين لا يحترمون المواعيد، هؤلاء المتخلفون كان الأجدر بهم أن يبقوا رعاة في البادية، بدلاً من أن يأتوا إلى هذه المدينة الراقية!

المهم، وبعد جرد حالتنا، تبين أن أياً منا لم يجرؤ على الحديث مع أية طالبة معه، بل إن صالح الذي حدثته زميلة له في درس التدريب العملي احمرَّ و اخضرَّ ولم يستطع إجابتها إلا بـ "الوما"، هازاً رأسه مرة بنعم، ومرتين أو ثلاث بلا! هذا أجرأ واحد فينا، أو أكثرنا نصيباً، إذ أن محمود كان مشغولاً بالمطاردات التي لا تغني، وأنا كنت في فئة كلها من الذكور، ليس لنا اهتمام إلا النظر إلى الفئة المقابلة التي كانت كلها من الإناث. حتى أن واحداً منا كسر أنبوب الاختبار وهو يسير إلى المُعيد ليريه النتائج، وهو ملتفت إلى الفئة المقابلة، وعندما انتبه المعيد الذي كان هو أيضاً منشغلاً بالنظر إلى الفئة المقابلة، وبخه بعنف وشدة،

مستعرضاً صلاحياته أمام الفئة المقابلة التي صُعقت من هول الصياح والتوبيخ، وجمدت الفئة كلها، وصمت المختبر، حتى أن إحدى الفتيات مسحت دمعة كادت تسقط على وجنتها الجميلة التي كنا نتأملها جميعاً!

* * *

بعد كل النقاشات، استبعدنا الفنادق تماماً. واستبعدنا أفلام الكاراتيه بالأغلبية، وليس بالإجماع، وقررنا الذهاب إلى المحاضرات القليلة التي كانت تقام هنا، وهناك، في قاعات مهجورة، مهملة، يحضرها على الأغلب بعض المتقاعدين، أو الشبان مثلنا، ممن يبحثون عن مكان، أي مكان يذهبون إليه.

خلال تلك السنوات، وبعد كل محاضرة، اعتدنا سماع الأستاذ عيدو. والأستاذ عيدو، شئنا أو أبينا، شخصية أثَّرت في حياتنا كثيراً، فأنت لا تملك تحديد سمة عصرك، عندما يرأس مخفر شرطة حارتك رجل قاس، يضرب المذنب وغير المذنب من أجل أن يمرن عضلات شرطته ويبقيهم على سوية عالية من الأهبة، كما يردد دائماً! عندها تضطر أنت وجيرانك إلى تسميته (الخنزير)، غير مدرك لعواقب الأمر. في البداية، تفرح لهذا الابتكار الانتقامي،

وتشيعه في كل حدب وصوب، حتى ينتشر في كل أنحاء المدينة، وربما خارجها، لكنك تفاجأ وأنت تجلس في مكان أو سهرة، وخلال التعارف، تجدهم يلقبونك بابن حارة الخنزير، وإذا طال المزاح والمرح، ستجد في النهاية من يناديك مداعباً بـ (أبو الخنازر!).

عندها، ومهما حاولت تلافي الأمر، لن تُجدي جهودك نفعاً، حتى بعد ذهاب الخنزير من حيك، بانتقاله إلى وظيفة أخرى، أو صرفه من الخدمة، أو حتى وفاته. ذهب هو، وبقيت أنت تحمل اللقب الذي أسبغته عليه!

كذلك، كان الأستاذ عيدو، ورغم إننا استسخفناه، وجعلناه مهزلة للجميع، فإنه وسم مرحلتنا تلك باسمه العتيد الشائع، الذي ربما تعرفونه أنتم أيضاً.

فما إن تنتهي المحاضرة، أية محاضرة، حتى يكون الأستاذ عيدو أول المتحدثين، وهو رجل جَهوري الصوت، ضخم الجثة، متقن للفصحى، ويحفظ الكثير من الشعر الحماسي، وكماً هائلاً من أشعار المديح، كما يتقن أساليب الخطابة القديمة، عدا الإيجاز الذي لا يطيقه.

يبدأ حديثه متبسطاً، هادئاً، يختار موضوعاً بسيطاً، مثل نهضة المدينة، وكيف تغيرت وغيرتنا معها، نحن المواطنين، من أناس بسطاء على هامش الحضارة، إلى مجتمع يعيش في قلب العصر، فالأبنية ارتفعت في كل مكان... وهنا يرفع من وتيرة صوته، ليغدو الخطاب حماسياً!

- كل ذلك بفضل حكومتنا الرشيدة، التي تسهر الليل من أجل رعايتنا وتوفير السعادة لنا.

وهنا يرمي عدة أبيات من ثريد الشعر الذي قيل سابقاً بمن لم يفعلوا شيئاً في حياتهم إلا رشوة القائل البليغ الذي استنسخهم بشعره الدسم، ولوث بهم حياتنا التي أدمنتهم.

بعدها، يُهدئ من روع الموجودين الذين يهبطون من رحلتهم التاريخية التي حملتهم إليها الأبيات البليغة، لينصحهم بعدم الاكتفاء بالقول، وإنما بالإقدام على الفعل، أسوة بقادتنا الأجلاء الذين يضحون بوقتهم الثمين من أجلنا:

- أيتها السيدات.. أيها السادة: لا يكفي أن نقول بالروح بالدم نفدي قادتنا، لا أبداً. يجب أن تتحرك فينا روح الفداء الأصيلة. يجب أن نمنحهم مستقبلنا كاملاً، من أجل أن يعيدوا صياغته على سجيتهم ومواهبهم الجبارة!

عندها تهتز القاعة بالتصفيق الحاد، خاصة من قبل طلبة المدارس الذين يتم أخذ التفقد لهم في آخر المحاضرة. وكذلك من قبل المتنفذين الذين يبتسمون بأبوة، ويصفقون بهدوء المنتصر، حتى بلغ الأمر بأحد المدراء المتحمسين بأن صاح منتشياً:

- تسلم روحك. يسلم قلبك النابض بالوطنية والولاء يا أستاذ عيدو!

كان ذلك في أوائل بزوغ ظاهرة الأستاذ عيدو.

أما في أواخر أيامه، فقد تمّ تقليعه من الباب الرئيسي، ولم نعد نراه إلا في المطاعم والمحلات العامة، مردداً الأبيات نفسها، مقابل كأس أو سيخ كباب. وقبل أن تطرده المحلات، بدورها، كنا نستمتع بالسخرية منه على طاولتنا. نطلب منه أن يلقي علينا قصيدة واحدة من غير باب المديح، من الغزل مثلاً، مقابل صحن سلَطة، أو صحن مخلل، إذ كان المخلل يساعده على كثرة الشراب كما يردد دائماً.

حتى كان يوم جاءنا فيه مهندماً بشوشاً، كأنه جاء ليودعنا لسفر، أو لهجرة وشيكة! لكنه سرعان ما طلب لنفسه زجاجة شراب على غير عادته، فهو لا يفعل ذلك مباشرة، بل عن طريق أحدنا، واعداً إياه ألا يمدح محاضر الغد، أو مدير القاعة، أو أياً

كان، ويطلب من النادل ورقة بيضاء من تلك التي يمسح بها الزبائن أيديهم عند الخروج من المغاسل، ويسطر بيده تصريحاً خطياً بذلك حتى ينال طلبه! هذا بالرغم من أنه لا يلتزم بتعهده في اليوم التالي، فعندما ترن القاعة بأبيات الشعر المبجِّلة، يرفع يده عالياً وهو يشيد بمناقب هذه القاعة التي جمعت شمل الفكر والنهضة، وهذا المدير الطيب الذي يحرص أشد الحرص على جمعنا هنا من أجل رقي الأمة وعزة نهضتها:

- إننا أيتها السيدات والسادة ندخل التاريخ من أوسع أبوابه، فهذه الأيدي والنفوس الخيّرة تقودنا إلى الصلاح، ورسوخ الجبروت، وعلو الهمة. سيروا إلى الأمام، والله سبحانه وتعالى هو الموفق، وهو الذي ينصر الأمة، وقادة هذه الأمة. تمتعوا بما هو قادم إليكم. تمتعوا واشكروا الوطن الذي أنجب من فلذاته هؤلاء القادة الذين يحدبون علينا ليل نهار!

لكن المرة التي تسببت في منعه نهائياً من حضور المحاضرات وضعت حداً لأسطورة الأستاذ عيدو.

كانت الإدارة قد استبدلته بمعقب أقل موهبة منه، وحاولت منعه رغم معرفتها أن جوقة من المادحين لا تستطيع ملء الفراغ الذي سيخلفه غياب الأستاذ عيدو!

يومها، جاء وكأنه قد أفرط في الشراب أكثر بكثير مما يفتح القريحة، حيث أخطأ وكال جزءاً كبيراً من المديح للمستخدم الذي أدخله بعد بداية المحاضرة بربع ساعة، مخالفاً تعليمات إدارته الشفهية بعدم إدخاله إلى القاعة، إذ بدأ خطابه التبسيطي بالحديث عن فضائل هذا الرجل القابع أمام القاعة من أجل راحتنا وراحة أفكارنا، وحتى بعد اشتعال نار مشاعره، ظل يؤشر بيده إلى الخلف بدلاً من المنصة التي أمامه، وهو يلقي بأبيات حفظها مجدداً، ولم نكن قد سمعناها منه سابقاً، لكن الضحك والسخرية ارتفعا في القاعة ليضعا حداً نهائياً لخدمة الأستاذ عيدو في القاعات العمومية، منتقلاً إلى مرحلته الثانية التي قضاها في المقاهي والمطاعم. في ذلك المساء الذي زارنا فيه، كأنه يودعنا، أو ما شابه ذلك، انصرفنا في آخر السهرة، والأستاذ عيدو مسطح على الأرض، ثملاً يصيح بصوت عاوٍ:

- إبني ... إبني ... أتركوني أشوف إبني مرة واحدة، مرة واحدة، مرة واحدة بس!!

بعد شهر حضرنا جنازة الأستاذ عيدو.

وكاد محمود أن يلقي بعضاً من قصائده على قبر الأستاذ عيدو انتقاماً منه على مئات القصائد التي أتلف بها آذاننا!

لكن زوجته أفزعتنا، وهي تصيح فوقه بحزن وألم، منادية على إبنها الذي لايحضر جنازة أبيه. كان صوتها يمزج ألم الفقد مع الحنين إلى إبنها. كانت تصيح على الناس بقهر، وترجوهم ألا يدفنوه قبل أن يرى إبنه، إبنه الذي لم يترك الاستاذ عيدو جهة ولم يسألها عنه، حتى حفظ القصائد ومدحهم، وقبّل أحذيتهم من أجل أن ينال نظرة واحدة من وجه ابنه، فلم يفلح حتى في معرفة مكان اعتقاله!

❒❒

من يذكر تلك الأيام! (*)

كنا نسكن منطقة المساكن الشعبية ذات الطابق الواحد، التي كانت تعتبر يوم إنشائها آخر المدينة، لكنها اليوم تقترب من وسط المدينةالزاحفة دائماً باتجاه الغرب. تلك الأبنية المتشابهة أثارت

(*) العنوان مأخوذ من عنوان كتاب مشترك للروائي حنا مينا والدكتورة نجاح العطار

الاستياء حينها، إذ لا يتميز بعضها عن بعض إلا بالأرقام المكتوبة عليها، حتى أحس ساكنوها أنهم لون واحد، بلا ميزات، أو فوارق، إلا الأرقام التي تميز بيوتهم. والغريب أن هذا التشابه في الأبنية أسبغ على الأسَر نوعاً من الإندماج، فالناس صاروا يبدأون أحاديثهم دائماً بتأكيد تشابه الغرف، بدلاً من البدء بالحديث عن الطقس مثلاً. والنساء يبحثن عن ميزات لكل بيت، مادحات، أو ذامّات، نوعية الفرش، أو توزيع الأثاث بين الغرف المربعة الصغيرة، التي لا يجدي معها أي إعادة تأهيل أو توظيف.

* * *

كان الشبان يسهرون على أرصفة الشوارع حتى ساعة متأخرة من الليل، يتبادلون الأحاديث والنكات والأخبار المحظورة التي يسمعونها في هذه الإذاعة، أو تلك، عن حقيقة ما كان يجري في البلاد من اضطرابات، حتى ذهبوا ذات فجر دفعة واحدة. لعلهم اشتركوا في مظاهرة، أو تبادلوا منشوراً من تلك التي تحارب بها الأطراف بعضها بعضاً، أو ربما رددوا إشاعة أدت إلى اتهامهم بالضلوع في مؤامرة شرسة، كما اعتاد أن يردد على أسماعنا رجال التقصي الذين يأتون بشكل دوري لمسحنا.

والمسح على عكس ما يتندر به أهالي المساكن الذين يتبادلون النكات حوله:

- وجهك ما هو ممسوح من زمان!

- والله.. البارحة مسحوني لحد خالات جدتي أم فرحان. وسألوني إن كان زوجها رحمه الله راعياً للغنم، أم راعياً للإبل.. وهل كانت الدواب تسرح غرب البلدة أم شرقها! وهل كان المدعو زوجها أبو فرحان يمشي على يمين القطيع أم على شماله!

فالمسح لم يكن مسح وجوه، كما توحي الكلمة، وإنما مسح معلومات كما يردد المخبرون، إذ يعود الفضل إليهم في إدخال هذا المصطلح إلى حياتنا، حتى قبل أن يبدأ عصر التكنولوجيا المعلوماتية بسنين طويلة!

وللمسح في تلك الأيام فنون وشجون في مساكننا التي تربينا فيها. إذ قد يأتي الماسحون منذ الصباح، ولا يخرجون إلا بعد الغداء. وقد يأتي مع الماسحين شبان أنيقون مهمتهم الابتسام والتهذيب، علهم يغوون زوجات المشبوهين، أو أخواتهم، للضغط على الشبان، لاستخلاص بعض التفاصيل لاكتشاف خيوط المؤامرة الشرسة التي يحتاجها الماسحون كي ينالوا رتبة أعلى، ونيل المكافآت المجزية، أو على الأقل ليثبتوا جدارتهم ويبقوا في وظائفهم التي تدر عليهم

الهيبة وعلب المحارم والسمنة والدخان دون الحاجة إلى الوقوف الطويل في طوابير لانهائية!

ما إن تسمع نساء المساكن بوجود المسح لدى رقم 10، مثلاً، حتى يتوافدن فرادى، سائلات عن الصحن العريض، أو كاسات الشاي التي استعاروها البارحة، أو يأتي الأولاد بصور فوتوكوبي عما هو مطلوب معرفته عن العائلة الجاري مسحها، مسجلاً فيها اسم الأب واسم الأم والأخوة والأخوات والعمات والخالات، ونبذة عن سيرة حياة المتآمر الشرس، وأنه نشأ على حب وطنه في بيئة فلاحية عمالية مناضلة، ودرس الابتدائية في قرية أبو فاس، والإعدادية والثانوية في مدرسة النهضة العربية، .. وأنه كان مثالاً للسلوك الحسن والاجتهاد والإخلاص... إلخ.

وقبل أن يصبح الفوتوكوبي شائعاً، كنا نجتمع في أحد المساكن، أو أحد الأرقام، كما نصطلح في ما بيننا، ونقوم بنسخ المعلومات المطلوبة، حيث يتم توزيع أوراق بيضاء علينا، و يتلو علينا أخو المتآمر كامل سيرة حياة أخيه، كذلك أسماء العائلة، فيما نحن ندون خلفه على الأوراق وفق ترتيب صار ثقافة شائعة في هذه المساكن!

هكذا تم الدمج بين العائلات المتنافرة التي سكنت المساكن، عدا بعض الأسر التي كانت تطمح بمناصب عالية، فقد

فرت مستعينة بما جمعه الأب من إيرادات في وظيفته، سواء عبر لجان الشراء، أو لجان الاحتفالات الرسمية، لتشتري بيتاً أكبر، وبعيداً عن تلك البقعة التي صارت مشبوهة بنظرهم!

* * *

وبالإضافة إلى طقس المسح، كان طقس نبأ الإفراج مسلياً لنا نحن الصغار، حتى أنني عندما كبرت يسَّر لي هذا الطقس اختيار الفتاة التي ارتبطت بها زوجةً لي بعد سنين من أنباء الإفراج!

وما إن تقترب مناسبة وطنية، مثل عيد ميلاد القائد، حتى يأتي باص إلى المساكن في حدود الساعة العاشرة صباحاً؛ لا نعرف من استأجره، أو ضرب له موعداً ثابتاً. تصعد العائلات مع زواداتها ودعاوى الأمهات والآباء:

- إن شاء الله نرجع كلنا مع أولادنا.. ما يظل ولا واحد!

ونهتف جميعاً خلف الداعي:

- إن شاء الله.. إن شاء الله!

ورغم انغماس الأمهات بتنبيه بناتهن للاتزان، وعدم الضحك لفلان وعلان، والصياح على الصغير بعدم البدء بالأكل منذ الآن، فما يزال النهار في أوله، وتفقّد الكاسات، وبيدونات الماء، وربطات

الخبز، والبندورة، والخيار، والجبنة، وغيرها مما سيندمج لاحقاً في مائدة واحدة مفتوحة للجميع في عمق البادية عند الطريق المؤدي إلى أحد المعتقلات الصحراوية، حيث ننتظر أن يأتي المعتقلون الذين قد يُفرج عنهم في هذه المناسبة المباركة!

في المكان نفسه، نجد باصات سبقتنا، وأخرى تأتي لاحقاً من مدن مختلفة. وسرعان ما يندمج المنتظرون في الأحاديث المشتركة، وتبدأ مباريات الشطرنج، والكرة، ولعب الورق، وصياح تحضير الطبخ، وتأديب الأولاد. ويرسل البعض كاسات الشاي، أو صندويش الجبنة إلى الدورية القابعة بعيداً عن الباصات، صامتة منتظرة. في السنين الأولى، كانت ردود الفعل على الضيافة التي تأتيها مختلفة، فرئيس الدورية يضرب صينية الشاي برجله رافعاً صوته بالصياح والسباب، لكن وبعد سنين صارت الدورية أكثر ليناً، إلا إذا كان رئيسها جديداً ومستعجلاً على سحق المؤامرات الشرسة!

وفي إحدى السنوات، كانت المناسبة الوطنية في شتاء قارس، ما اضطر الناس لإشعال دواليب سيارات تالفة للتدفئة، ريثما ينقطع الأمل في المساء، أو في أواخر الليل القارس. ورغم قسوة تلك الليلة، فقد شهدت خطبة أحد عناصر الدورية من إحدى فتيات باصات

الانتظار، حيث تعلق بها رغم معرفته بأن زواجه منها سيؤدي إلى فصله من الخدمة لاحقاً!

* * *

فجأة، تغير كل شيء، ولم يعد الناس يستطيعون الانتظار عند مفترق الطرق الصحراوية، وصار الحي تحت رقابة يومية صارمة، وصار الذي يرجع من الأولاد، الذين لم يعودوا أولاداً سوى في نظر أبناء الحي، يرجع في صندوق، فتدفنه الدورية بنفسها، وتبني خيمة على قبره، وتبقى عليها حراسة لعدة أشهر ولا يرحلون إلا بعد تحلل الجثة. لم يعد أحد يستطيع رؤية إبنه لا حياً ولا ميتاً. وانهالت الإشاعات من هنا وهناك. يقول قائل إنه حفر نفقاً تحت أحد القبور المحروسة وفتح الصندوق ورأى ما في داخله:

- كانت الجثة عبارة عن قطع تشبه قطع فروج البروستد!

لكنه رغم الظلام وضعف الإنارة، فإنه رأى رجلين لا تشبه إحداهما الأخرى، وآخر رأى رأساً شائباً لا يعقل أن يكون لأخيه الذي ذهب صغيراً، وآخر حلف بأنهم قد نسوا يداً من يدي إبن عمه! لم يعد مسموحاً التحشد لاستقبال المفرج عنهم، وصاروا يأتون واحداً واحداً. بعضهم نسي معالم المساكن التي تغيرت كثيراً، حيث أضاف البعض غرفة صغيرة أمام المسكن، أو فوقه، أو حوّل

غرفة المطبخ إلى دكان ليعتاش منه. يدورون في الشوارع متأملين المساكن، علّهم يتعرفون إلى المسكن بتذكر موقعه، أو علّ رائحة الأهل تجذبهم إليه. يظلون واثقين من قدرتهم على التمييز حتى يلتقطهم أحد المارة، ويصطحبهم إلى المسكن الذي كانوا يقطنونه، ليفاجئوا أهاليهم في لحظة كانت منتظرة منذ زمن طويل، ورغم طول تلمس اللحظة المنتظرة، وكثرة المرور عليها، فقد ظلت مفاجئة وجديدة!

أحياناً، يجدون أناساً آخرين سكنوا في منازل أهلهم، لكنهم يجدون العناوين الجديدة مفصلة عند السكان الجدد، الذين لم يعودوا جدداً بعد السنين الطويلة التي مرت على سكناهم مذ غادر الذين قبلهم!

* * *

تغيرت المساكن كثيراً، وأمرت البلدية بهدم بعضها نتيجة ظهور تشققات في جدرانها. قال مهندس يتأمل مسكناً متشققاً مع مجموعة من الفنيين:

- من أين جاء الثقل الذي شقق هذه الجدران!

إنه لا يعرف هذه المساكن، ولا يعرف أكباد الأمهات المفتتة، ولاالهموم الثقيلة التي حولت رؤوس الأمهات إلى كرات من معدن

ثقيل يتضخم في ليل الانتظار الطويل. كانت الأم تتقلب، فتتحرك معها الكرة المعدنية، لتصطدم بالجدار الآخر. وعندما تقوم تصطدم الكرة المتضخمة بالسقف، وكثيراً ما يخيل إليها أنها لاتستطيع الخروج من الباب، فتنتظر قليلاً ريثما تنكمش الكرة قليلاً وتسمح لها بالعبور إلى الغرفة الأخرى، أو إلى باحة الدار لتقضي الليل جالسة تنتظر الفجر، أو تعود بعد ساعة لتعاود التقلب حتى يتشقق المنزل.

أخيراً، ترحل الأم إلى قريتها التي جاءت منها أول مرة، ليأتيها إبنها مصندقاً، تودعه تراب البرية، أو يرجع ذاهلاً لا يريد لأحد أن يكلمه.

تغيرت الدنيا كثيراً، وهجرنا منزلنا المتشقق لأدفن أمي على رأس تلة شرق القرية. أوصت أن أدير وجهها صوب المعتقل الصحراوي الذي كنا نذهب إلى مفترق الطرق الذي ينسحب أحد الدروب إليه، حيث كنا نُمطر الدرب الساكن بوابل نظراتنا. لا تغادر عيوننا مساره، سواء كنا نأكل، أو نشرب، أو نلعب، حتى العشاق يبقون أنظارهم على الدرب وهم يتغازلون. وكل ركاب الباصات تتفرغ أنظارهم لذلك الدرب الضئيل الذي ينسحب من دائرة الطرق المتقاطعة، ليذهب وحيداً إلى أحبائنا الذين ننتظرهم دائماً، في الصباح وفي المساء، عند مفترق الطرق، أو في بيوتنا. في

المدرسة تمتلئ أذهاننا بانتظارهم، وفي الشارع، في أيام الحر الشديد ننتظرهم ليشربوا معنا الماء البارد، وفي أيام البرد القارس ننتظرهم قرب المدفأة، متخيلين أنهم يتناولون إبريق الشاي الساخن ويصبون كأساً لهم ويشربون معنا. لقد تحولت أيامنا إلى مربعات من الانتظار الملون بالأمل أحياناً، و بالغضب أحياناً.

قالت أمي:

- أديروا وجهي صوب الدرب الذي سيأتي منه. سأراه حتماً، ولن يحجبه التراب عن عيني. أريد أن أراه، لن أنتظر حتى يصل إلى قبري. أريد أن أكون أول من يراه في اللحظة الأولى التي سيبدو فيها... لتهدأ روحي الهائمة!

❐❐

الحاجز

كنت مستعجلاً، ولم يكن الباص كذلك، فكلما أقلع أشار له راكب على الطريق العام، ليتوقف مصدراً ضجة قوية بفعل تحرك أسطوانات الضغط، وكذلك عند الإقلاع الذي قد يطول لفصل الأجرة مع الراكب، وإيداع أغراضه في أحدى الخزن أسفل الباص، ووداع الراكب لمرافقيه الذين أرهقتهم

وطـأة الـشمس الحـادة، لكـن رعـشة الفـراق سـرعان مـا تـستفيق فيهم، وربما تتساقط بضعة قطرات من دمع فشلت العيون بإخفائها، حتى مع خدر الانتظار الطويل على الطريق العام. هـذا المسافر قد يطول غيابه مسافر مدة أسبوع، أو شهر، أو ربما يرجع في اليوم نفسه، ناسياً بطاقته الشخصية، أو متلقياً خبراً، وأنه لا مجال لعمله هذه الأيام، وعليه الانتظار ريثما يتصلون به مرة ثانية. وقد لا يكون السفر هو المبكي ولا مدته، فقد تسقط دمعات الأب لمجرد أن إبنه مسافر بلا وعد محدد في العمل، أو ربما لمجرد أنه يفارق أهله في بلاد الغربة. أما الأمهات، فالبكاء لديهن لازمة طالما نشاهدها من زجاج الباصات التي نسافر بها.

الباص مليء بالناس، كثير منهم مستمتع بالسرعة، رغم البطء الشديد الذي يقارن بسرعة مشي أيام زمان، أو سرعة الحصان، أو الدواب التي كانوا يسافرون عليها إلى المدينة.

* * *

حركة الباص تهز الركاب، أنا والفتاة والعسكري كنا نهتز. نحاول الحدّ من حركة الاهتزاز أنا والعسكري، لكن الفتاة تنجح بالاستقرار أكثر منا. بقية الركاب ينوسون بحركة شديدة غير مبالين، كلٌ ساهمٌ في شؤونه، أنا والعسكري ننظر إلى الفتاة

السمراء المحجبة، وهي تتجاهلنا. العسكري يتشاغل بالنظر عبر النافذة إلى خارج الباص، لكنني أحس بعينيه القويتين الموجهتين إليها، وأنا أنظر إلى الأمام متشاغلاً بالاستعجال ولحظ وجه الفتاة الصافي. تبدو مهمومة هي أيضاً، لعلها أول فتاة تخرج من طوق البيت لتعلّم في الريف البعيد. تُرى هل تقطعها كل يوم ذهاباً وإياباً، أم أنها تبيت في القرية التي تُعلّم فيها؟ لا أظن أنها تجرؤ على المبيت خارج المنزل، ولو كلفها الذهاب والإياب راتب الشهر كله. إنها متوترة كأنها أول فتاة من عائلتها تخرج للعمل خارج المنزل، قاطعة بذلك سلسلة طويلة من النساء المتواريات خلف الأبواب الموصدة. تُرى كم جيل مرّ قبلها حتى استطاعت العمل خارج البيت، وما عدد النساء اللواتي انتهى الأمر بهن إلى الضرب، أو التزويج المبكر، أو ربما القتل على يد أخٍ طائش لم يحتمل تلميحة من أحد سكان الحارة حول أخته؟

إنها مثقلة ومتحفزة، لكنها خرجت من شرنقتها، منهية مئات السنين من المكوث في القمقم. لاتبدو ساذجة، ولا يظهر عليها الإحباط، أو الرغبة في البكاء، ولا تريد أن تنظر إلينا. إنها واثقة من نفسها، غير مبالية بأجيال النساء الخجلات اللواتي انتهت سلسلتهن بإنجابها.

العسكري حليق الرأس لايزال فتى صغيراً، تبدو من هيئته حداثة عهده باللباس الكاكي، لكن عينيه قويتان لا توفران لحظة واحدة في محاولة استمالة الفتاة التي تنظر إلى الأعلى. يشعر بأنها ستتهاوى أمام شاراته العسكرية، فتنتابه موجة فخر تدفع الهواء في صدره. يتنفس بعمق وهو يحاول لفت نظر الركاب إلى مكانته. تُرى، هل يخطط هذا الفتى لمعركة كبيرة يخوضها ضد العدو، أم أن الأمر كله من أجل إغواء الآخرين بمظهره القوي ليتوطد شعوره بالثقة أمام الناس العزّل، وإذا حاولوا التطاول عليه، هل سيركب دبابته مثل الآخرين، للهجوم عليهم، حتماً لايرضى إلا أن يكون الآمر. حياته، بدنه القوي، سلاحه، الاندفاع نحو مراكز القوة، كل ذلك يلح عليه.

الفتاة السمراء لم تنجذب إليه بعد. ربما يكون السبب في أنها لا تجرؤ على الالتفات إليه، فلو رأته لما استطاعت كتم انبهارها بشاراته وبنيته القوية. هل سيضجر من الانتظار، ويقوم إليها ليقطف قبلة من فمها الصغير المعقود بصمتٍ وإغراء. هؤلاء العسكر لا يطيقون الانتظار. سوف يبادر إلى شيء ما. لو كان لديه مسدس لأخرجه وطقطق به بحجة تفقده، وأعاده إلى حزامه.

أخرجت كتابي الجامعي، وقلّبتُ صفحاته. أدرت غلاف الكتاب باتجاهها، لعلها تقرأ وتعرف التخصص الذي أنوي

الحصول عليه، الطب. إنه تخصص مرموق تذوب أمامه أجمل الفتيات، وإذا لم يعنهن ذلك، فإن أمهاتهن تدفعهن إلى المبادرة، حيث المكانة والعيش المريح.

هذا الفتى ماذا سيفعل لها مستقبلاً. إن مهنته تعرضه للحوادث، أو الضياع دائماً، فإما أن يموت على حدود الوطن ويصبح شهيداً، وهذا نادر هذه الأيام، أو يكون مجرد مهني يداوم وينصرف كل يوم في حلقة مفرغة من نقاشات المصروف والتوفير، مثل أي موظف حكومي بسيط..!! أو يكسر عجلة الفراغ والتكرار ويشترك بانقلاب ويفشل، وتكون نهايته على شكل قطع صغيرة يجعلونها تأكلها مطبوخة إذا كانت زوجته. أما إذا نجح انقلابه، فسوف تتهافت عليه النساء من كل حدب وصوب، ولن يكون نصيبها إلا الإهمال والاحتراق بالغيرة، إذا كانت نزيهة. أما إذا فقدت صبرها، فسوف تتفنن باختيار السائقين والحُجّاب، لتمضي معهم سنين انتظارها التي لا تنتهي.

* * *

عندما صعدت الآنسة، صاح السائق على معاونه فأجلسها في مكان قبالته، وأمره بتغيير اتجاه المرآة المعلقة فوقه ليرى يمينه كما زعم، لكننا عرفنا أنه وجهها إلى الفتاة الساهمة أمامنا. صاح

على معاونه بأنه لم يعد قادراً على التوقف، وأخذ يزيد السرعة كأنما الفتاة حركت دماءه التي كانت متثاقلة، وأمر أحد الركاب ممن يصطحبون معه معزى صغيرة أن يخرسها، أو ينزله مع معزته على الطريق مستغنياً عن أجرته!

- عندنا باص مو سيارة شحن!
- العمى بعيون المعاون اللي طالعك!
- ولك يا إبراهيم كيف طالعت هالمعزاية؟ شو مفكرنا!

رد المعاون بخجل وخشية غضب معلمه:

- قلتلك يا معلم قبل ما أطالعها!

رفع صوت آلة التسجيل بأغنية غرامية مليئة بالآهات والغراميات، واندفع بالباص غير آبه بالركاب الذين يؤشرون له كل مسافة.

- بدنا نوصل بكير!

وبدون مقدمات، فتح الحديث مع الآنسة حول ظروف عمله وحياته، لكنها لم تستجب له إلا بنعم أو لا، كل حين!

التفتت إلينا، كانت عيناها سوداوين واسعتين، ببياض ناصع. ابتسمتُ لها، وتنحنح العسكري، واستيقظ صاحب المعزى من

غفوته، ورفع رجل ملتح صوته بالتسبيح، وزاد السائق سرعته، وقال شاب لا يكف عن الحديث لجاره في المقعد:

- ما أحلاها!

مددت إليها يدي بصحيفة لتقرأها، تناولتها قلّبتها قليلاً، وأعادتها إلي بابتسامة ناعمة.

أخرج مسدسك أيها العسكري وأطلق طلقتين بالهواء احتفاءً بإخفاقي!

* * *

عند الحاجز، تهادى الباص وتوقف في آخر صف طويل من السيارات المنتظرة. جاء جندي، وأمر الواقفين في الممر بالنزول ريثما يأتي المعلم. انتشى العسكري الذي معنا رافعاً رأساً مشحوناً بقوة استمدها من أجواء الدبابات والخيم المحيطة بالطريق العام. تلمست بطاقتي الشخصية. دق قلبي، واضطربت الفتاة متوجسة. العسكري ازداد انتعاشه بدفق القوة. تأخر المعلم الذي سيفتشنا. أحد الركاب سأله عن معلمه، فقال إنه هناك خلف الخيام. يبدو أنه يعاني من إمساك يطيل جلوسه خلف التلة. سألتُ الفتاة: هل تمر على هذا الحاجز كل يوم. كانت مضطربة، فأشارت برأسها مؤكدة

بمرارة أنها تمر مرتين، ورغم ذلك لا تستطيع أن تبيت في القرية التي تدرّس فيها، قلت:

- حتماً أهلك لايزالون متخوفين من مبيتك خارج المنزل!

ابتسمت موافقة، ودار الحديث بيننا عن سنة تخرجها، وكيف وافق أهلها على عملها. ولولا أجواء التوجس لتحول الحديث إلى بعض الفكاهات. ضرب العسكري المقعد الذي أمامه بقبضته القوية، وتحول كبرياؤه إلى شعور بالحنق مع الزفير المسموع كلما سار الحديث مع الفتاة بوجهة جديدة.

جاء المعلم. كان وجهه مصفراً. نظر إلينا واحداً واحداً باحتقار واستخفاف. رأى المعزى في الممر، ورغم صمتها أمامه، انفجر على صاحبها بالتحقير والتوبيخ، وأمره بالنزول هو وعنزته. لم يستطع الرجل نتيجة ذعره التمسك جيداً بالعنزة التي ولّت هاربة، فأثارت الهرج بين المنتظرين والجنود. كان المعلم يشعر بالاستياء الشديد، ربما لأنه لم يتمكن من التغلب على الإمساك خلف التلة، أو لأنه ساخط بسبب المجيء إلى هذه النقطة. تناول عقال الرجل من على رأسه وصار يضربه أمامنا. الرجل صامت، والمعلم ينهال عليه بالصفات المقذعة. المعزى توارت، واختفى صوتها. كانت رؤوسنا تنحني إلى الأمام. لم نعد ننظر إلى بعضنا، حتى العسكري الذي

معنا انحرف ببصره هارباً به عبر زجاج النافذة المجاورة له. الفتاة صامتة، والسائق واجم، وأنا لا أستطيع النظر حتى إلى الكتاب الذي كنت أتفاخر به. أقلع الباص بدون أغان، وبدون هرج ومرج بين الركاب، وبدون معزى الرجل المضروب على وجهه. خطوط حمراء تتصالب على خديه وجبهته. شعره مشعث، وكوفيته منثورة على كتفيه. كان يغالب سقوط دموع تجول في عينيه. أطلت المدينة من بعيد، فوجدت نفسي أسأل الفتاة من جديد:

- كل يوم تذهبين هكذا إلى المدرسة؟

كنت مذهولاً، لكنها ابتسمت متفوقة بشعورها علينا:

- أجل كل يوم!

نزلنا من الباص متفرقين. العسكري مرّ بسرعة كأنه يهرب من إحساسنا تجاه زميله. الركاب انتشروا في الكراج واحداً واحداً، بلا صياح، أو كلام، أو ملاسنة مع المعاون. أنا لم أستطع التحدث إلى الفتاة التي نزلت إلى رجل عجوز ينتظرها، رغم أنها أعطتني فرصة قصيرة لقول جملة أخيرة، لكن الرجل صاحب المعزى مرّ بيننا خلالها!

❐❐

الرحلة

شعر بأنه تأخر عن الرحلة كثيراً، كأنما مرّ عليه زمن طويل دونما سفر، لقد أسن، هكذا كان لسان حاله يردد..

مذ كان صغيراً تولع بالسفر. السفر الأول كان بين القرية والمدينة المجاورة الذي كان مشياً على الأقدام. وفي ما بعد على الدراجة مع عدد من ربعه،

يضيق عليه المكان كلما طالت إقامته فيه، أياً كان ذلك المكان، ومهما كان واسعاً، فلا يستطيع أن يبقى دائماً فيه، ولا يستوعب أن يأسره مكان في يوم ما.

هذه المرة، شعر أن المكان صار خانقاً، وهواؤه يثير الحنق، فلم يعد يستطيع البقاء أكثر مما بقي؛ يجب أن يرحل!

أول رحلة طويلة عن أهله كانت عندما سافر إلى الجامعة، في العاصمة. كانت الرحلة غامضة في ذهنه، فيها كثير من المجهول الذي لا يستطيع توقع كنهه، فقد ظل يشرد شهراً كاملاً قبل السفر، ولم يعد يستطيب الطعام، أو الحديث، أو الاستقرار. كان يحاول توقع ما يمكن أن تكون عليه الأمور المنتظرة. وقف على طرف الطريق العام بانتظار سيارة يذهب بها إلى المدينة القريبة، ليسافر من هناك. كان والده صامتاً، ووالدته وقفت منبهرة بغياب ابنها الوشيك، تغالب دمعاً ينتظر لحظة الانهمار، كان وجهها رخامة بيضاء شققها التعب، وغمرها الغبار والزمن. أرجعت رجلها عن الطريق الإسفلتية، وعادت بها إلى كتف الطريق الترابي، كأنما لا تثق كثيراً بمنظر الإسفلت الأسود المستوي اللامع. لا تستطيع أمي أن تذهب إلى المدينة المجاورة وحدها خشية أن تضيع، فهي لا تعرف بعد كل هذا العمر تضاريس مدينتها وشوارعها المؤدية إلى الكراجات، ولا تستطيع الذهاب إلى الطبيب وحدها، أو شراء القماش، أو أغراض البيت، وليس لأنها لا تعرف

الطريق، بل لأن أبي لا يثق بقدرتها على التصرف أمام الكم الهائل من الناس، مع احتمالات الخداع التي تجعله هو نفسه يلجأ إلى أحد أصحاب الدكاكين من معارفه ليشتري له راديو، أو ليسجل أحد الأولاد في دائرة النفوس، أو ربما لشراء دفاتر المدرسة للصغار!

لم تجد أمه غير خمس ليرات تدسها في جيبه، خلسة عن والده. كان المبلغ ضئيلاً، حتى أوشك أن يجعله يسخر، لكن الأمر سرعان ما تبدى له مفجعاً! إنها لا تقدر على شيء، هذه الليرات هي كل ما تستطيع منحها لابنها المسافر، فظل محتفظاً بذلك المبلغ فترة طويلة، إذ كلما رآه اغرورقت عيناه بالدموع!

بعدها ترحّل بسيارات شتى، حافلات كبيرة وصغيرة، سيارات أنيقة، و باصات تملأ ممراتها الأغنام والماعز وشخير المسافرين النائمين، وقطارات تمشي كالسلاحف وتفقد إحساسها بالزمن، تتوقف ساعات طويلة، أو تعاود المسير بسرعة كبيرة أكبر من طاقتها، هكذا دون أن يدري أحد الأسباب، أو المبررات.

سافر مئات الكيلو مترات، من أقصى البلاد إلى أقصاها، يرسم خطوطاً مختلفة على وجه الخريطة، طويلة معوجة، أو قصيرة مستقيمة، فكر مرة أن يرسم خطوطه بانتظام ويسجل عليها ذكرياته، ابتداءً من رحلة الليرات الخمس.

* * *

اشترى معجون أسنان، فرشاة، و مشط جيب، إذ أنه لا يثق كثيراً بأدوات الفنادق! واشترى دفتر ملاحظات وبطاريات جديدة للراديو الصغير الذي يرافقه دائماً في سفره. حاول ألا يراه أحد ممن يمكن أن يطرح تساؤلات لا آخر لها عن وجهته و أسبابها وجدواها، بل عبثيتها، فهو لا يصغي كثيراً لمن ينهاه عما يعتمل في داخله.

يشغفه دائمًا سمك السلمون، الذي يعبر محيطات الأرض في رحلة أبدية تؤديها أجياله المتوالية، التي تعرف تيارات المحيطات واتجاهاتها، والأماكن التي تترك فيها أسماكها الصغيرة، و دون أن يلقنها شيئاً، فإنها تشرع برحلتها الطويلة فورًا، كأن خللاً ما يحل فيها إن هي أحجمت عن المسير، أو أنّ بنيتها لا تعمل إلا وهي مسافرة، كيف تقضي وقتها وهي تقطع آلاف الأميال، هل تغني لنفسها، للماء، للحيوانات البحرية الأخرى، وكيف تعقد صداقاتها وسط لجة الرحيل؟ أم هي ترافق الماء المسافر معها وتجعله أرضها التي تعيش عليها وتتوالد!

ليته كان كذلك. لا بد أن أسلافه كانوا يتغذون بمثل هذا السمك حتى أصابه داء الرحيل، أو ربما كانوا صيادي طيور دائمة الرحيل أيضًا. كيف ترتحل هذه الحيوانات الصغيرة؟ ومن أين لها خرائط الأمكنة التي لم تعرفها من قبل؟ هل رسمتها الأجيال المتلاحقة في أعضائها؟!

عندما قرأ (موبي ديك) وجد نفسه رحالة متخلفاً، بدائياً. لم تذهله مثلها رحلات ابن بطوطة، وابن جبير، ولا أخبار الحجيج الذين يقضون سنوات طويلة لأداء فريضة الحج، فهؤلاء الناس يترحلون وسط مدن وبلدان ومحطات يعرفون مواقعها، أما رحلة إسماعيل في (موبي ديك) فإنها زرقاء بلا معالم، بلا هدف للحج أو للكسب، إنها جنون أزرق ممتد ومتماوج بلا نهاية، تماماً مثل المحيطات التي قطعها!

* * *

تمدد على الديوانة، و حقيبة سفره مفتوحة على أشيائها القليلة. أراح ظهره على وسادة مائلة، فداهمه الظمأ الذي كاد يصرعه عندما وجم بهم القطار وسط صحراء مقفرة، ظلوا يوماً كاملاً حتى جاءتهم النجدات، صحفنا تكتب عن أخبار (مادونا) ومزادات ملابس (ديانا)، وعن حادث سير صغير في أقصى الشمال الأوربي، ولا تتذكر قراءها إلا عندما يدور الحديث عن انخفاض المبيعات بشكل مزر! ومع ذلك، فهي تبيعهم نسخها القديمة بالكيلو غرام، ربما لقراءتها دفعة واحدة، وتكرار أخبارها الهامة مئات المرات، ليحفظوها عن ظهر قلب، وليس لاستخدام أوراقها في أعمال مفيدة لهم!

تذكّر صباحات المدن البعيدة وهو يصل إليها مبكراً، يطوف في الشوارع بانتظار بزوغ الشمس، يقرأ النعوات الملصوقة على الجدران، صفحات كتاب متباعدة، صوراً لأناس عجائز، وشباناً مكللين بالسواد. تكرار الوجوه يجعل بينه وبينهم ألفة، فما إن يرى الصورة من بعيد حتى يعرف موعد الدفن، أو التأبين، أو إعادة الذكرى، وهل كان الموت بحادث مؤسف، أم بذبحة صدرية، أم أن كتابة أسماء الأقارب والمتأسفين الكثيرين قد أضاعت سبب الموت. لا يجب أن يقرأ الفاتحة على أحد منهم. لا يريد أن يتعامل معهم كصور سوداء مبتسمة، إذ إنهم لم يكونوا موجودين بالنسبة إليه قبل رؤية صورهم السوداء المؤطرة بالأسود... يبدل قبضة الحقيبة من يد إلى يد، فمقالات الصحة وآلام الظهر زرعت فيه إجراءات صارمة يتبعها لا شعورياً، على سبيل الاحتياط، فهو يصدّق كل ما هو مكتوب، إلى حد أن حياته صارت شبكة من الممنوعات والمرغوبات التي تنسجها الصحف والكتب.

مرة، رأى نعوة لكاتب يعرفه. كان الصباح باكراً، والفنادق لم تبدأ يومها الجديد بعد، إذ أنه يبدأ في الثامنة صباحاً، والدخول إليها قبل هذا الموعد يكلف أجر يوم كامل. إعلان الوفاة طازج، فاللاصق لايزال طرياً. مد إصبعه إليه، لم يجف بعد. لايزال موت الرجل مجهولاً، لكنه عرف به. لم يضعوا صورة لوجهه، لكنه تذكر أحد كتبه التي قرأها عن الطغيان. كان يشعر بألفة ومحبة

تجاه كل من يتحدث عن هذا الموضوع. بدّل موضع حقيبته ومضى. كانت النعوة متلاحقة، وكلما دخل شارعاً رأى واحدة، لكنها سرعان ما اختفت عن مسيره، كأن المرحوم لم يمت في هذا الشارع، أو لايزال حياً. لا أحد معني بتأبينه هنا، فقد ظل يدور في الشوارع باحثاً عن نعوة أخرى يسترجع بها معلوماته التي قرأها عن الرجل، فلم يجد!

ارتفعت الشمس، وتزاحم الناس في الشوارع مثل كل يوم، ولم يجد النعوة مرة أخرى. ذهب إلى الفندق مهموماً متعباً، فرأى النعوة مرة أخرى في منامه الصباحي المرهَق!

* * *

كل شيء أزرق، أزرق سماوي وناعم، يتجول في المكان بخفة، الديوانات زرقاء، الطاولة، حقيبة سفره، أشياؤها، النجوم زرقاء أيضاً! هل هو في حلم عن الفضاء الخارجي، أم أن رحلته التي يهجس بها كانت بصحن طائر! صمت ونعومة زرقاء، هذه ليست غرفة فندق. ثمة شيء ما يدل على الفندق مهما كانت درجته، مثل إحساس غريب؛ نفور صغير، أو كبير، لا يتأتى له هذه اللحظة!

يتمدد على الأرض. يستلقي على ظهره، فتنفتح أمامه صفحة السماء. في بيته الصغير الذي يعيش فيه وحيداً لا يرى السماء إلا من إحدى النوافذ العالية، فتبدو كمساحة ضيقة لا تزيد على بضعة

دونمات. أحياناً يضطر للخروج إلى الشارع ليرى الغيم الذي يهمي منذ الصباح. النجوم غائبة، والغيم أخفى حتى ضوءها. أما الآن فإن الضوء، رغم زرقته، يتلألأ، فيخطف الأبصار. أحس بمتعة، إذ لا أحد يقرع عليه الباب، أو يطلبه على الهاتف، ليكسر عزلته، حتى ولو من أجل الطعام. لا يشعر بالجوع أو الظمأ، إنه متوحد بزرقة الأشياء؛ ينظر إلى يديه، فيجدهما زرقاوين، كذلك رجلاه، وجسده كله!

الكلمات التي يهمس بها تتلاشى في زرقة المكان. لا يزال مستلقياً على الأرض، أطلق ذراعيه ورجليه على راحتها بالتمدد، فعبر نجم صغير مساحة داكنة الزرقة في السماء وتلاشى، وانحسرت رغبته في الجلوس، حتى غابت السماء الزرقاء عن عينيه، و فقدَ تواصله مع أطرافه الممتدة على الأرض..!!

بعد خلع الباب، وجدوه مستلقياً على أرضية الحمام الأزرق، ألقوا منشفة على عريه المُزرق. كانت المنشفة زرقاء أيضاً، إلا أن رائحة واخزة منعت الآخرين من دخول الحمام الأزرق الذي كساه عندما بدأ يولع بقراءات علم الفلك!

❒❒

المفلس

مـرّت علـيّ أيـام قاسـية، كنـت أغـادر فيهـا المنـزل صباحاً ولا أذهب إلى مكان عملي. أظل أجوب الشوارع على غير هـدى حتـى وقت الظهـيرة، حيـث أرجـع بربطـة خبز وبعض الطعام. لم تكن زوجتي تسألني عن شـيء، فتظـل صـامتة، بينمـا الـصغار يلعبـون هنـا وهنـاك، مستهلكين بقايا الألعاب القديمة، والثياب التي صارت تبلى دون تبديل.

في أثناء النهار، أمرُّ في محيط محلي، وأنظر إليه بزاوية عيني مستعجلاً لئلا يشاهدني جيران العمل، إذ أن ثمة شارعاً ضيقاً يقطع الشارع الرئيسي قرب محلي، ومنه أطرف العين إلى المحل المغلق، فيستبد بي الحنين إلى ساعات العمل، ومناكدات الجوار، وأسئلة الزبائن. أحنُّ إلى شرب القهوة، ودعوات الفول الصباحية، وتسريب الأخبار بلغة السوق المشفرة. كان الحنين يهزني، فأعبر الشارع سريعاً، لأرى البسطات التي تستوطن أمامه، كأنما لتغطي الفراغ الذي خلفه إغلاق المحل.

بدأ ذلك عندما تم حجز المحل لصالح المصرف، فوضعوا الشمع الأحمر على بابه ريثما يعلن عن بيعه في المزاد العلني.

في البداية، تقاطر عليّ الدائنون دفعة واحدة على أثر سماعهم نبأ الخسارة الكبيرة التي ألمت بي، ولم أعد قادراً على المكوث في المنزل من كثرة المطالبين، إذ لم يتورع بعضهم عن أخذ أثاث المنزل، كالتلفزيون، وجهاز الهاتف، وجرة الغاز. وعلى الرغم من صغر قيمة هذه الأشياء، لم يخجل بعضهم من أخذها. بل إن صديقاً استأذنني، خجلاً، كي يأخذ خزن المطبخ التي أعجبته عندما رآها في إحدى زياراته، فوافقته كي لايخنقني بسيل تملقه لي! لعل المقربين وأصحاب المبالغ الصغيرة أكثر شراسة من غيرهم، ولولا

نجدة من صديق قديم لكان الدائنون الصغار قد فكوا مصاطب المطبخ، وبلاط الأرضية، والحنفيات، ولم يبقوا شيئاً على شيء.

في المساء، كنت أهرب إلى دوار مظلم، فيه عدد من المقاعد الحجرية، وتنتشر حوله بعض عربات بيع الشواء. اللحم كان يبدو عفناً، كأنما أخذ من فطيسة. الزبائن يأكلون بصمت، ملتفين بالظلمة، كأنما لا يريدون أن يروا بعضهم، فمنهم من يأكل على دراجته كأنه في استراحة عابرة، ومنهم من ينتحي جانباً، ملتهماً ما بين يديه كأنه يلتقط فريسة بشكل مفاجئ، فيطلق لفكيه اندفاعهما قبل أن تقرر بطنه أنها لا تكفي.

كان أحد المترددين إلى المكان يعرف تقسيمات السماء وأسماء النجوم، فيجعلنا طوال ساعات نرفع رؤوسنا إليها، بعيداً عن الأرض التي نفر منها، لننظر إلى التوهجات البعيدة، ونطلق لخيالنا العنان بالتصورات عن حياتها والعيش فيها. كنا نضاعف قوة خيالنا من أجل الهروب من هذه الأرض التي أنهكتنا، شيوخاً هاربين من المشاحنات العائلية، مرضى يشعرون بأن مرضهم ليس كما يتحدث عنه الأهل والأطباء بجمل متناقضة، وبتقديرات مبالغ في تفاؤلها، معتقلين سابقين يستعيدون لحظات صفاء، ريثما يفكرون بشيء يفعلونه ليقاوموا الخواء الذي يملأ حياتهم والعوز الذي زرعته

السنوات الطويلة من الغياب، موظفين خسروا مكانتهم بشكل مفاجئ، وأُقصوا عن مواقع التحكم بتواطؤات من المقربين إليهم.

كان الدوار واسعاً ومتنوعاً، تتبدل فيه الوجوه وتتغير سماتها كل عدة أسابيع، إذ يغيب البعض، ليأتي غيرهم، أو يرجع الذين كانوا قد غابوا.

في أواخر الشتاء، عندما استدللت إلى الدوار، لم نكن نتحمل البرد، فننصرف مبكرين، وما إن دخل الصيف حتى صارت جلساتنا تقارب الصباح، فبعضهم يذهب لصلاة الفجر، وبعضهم ينتظر حتى بزوغ الشمس التي تصرف الجميع ليتواروا في أماكن أخرى.

لم أعد أذهب إلى السوق لأسترق النظر إلى محلي إلا نادراً، فقد أصبح الذهاب إلى الدوار هدفي اليومي بعد التجوال الذي صار يرهقني إثر سهر الليل الطويل. كنت أنطلق عند بزوغ الشمس باتجاه النهر، لأبقى حتى الضحى، وبعدها أندس في إحدى زحمات الشوارع متحاشياً توجيه نظراتي إلى المارة، إذ أن سعادتي القصوى تمثلت في ألا يتحدث إلي أحد، ولا حتى أن يسلم عليّ. لم أعد أطيق شيئاً، لا الناس، ولا المنزل، ولا حتى نظرات زوجتي المشفقة، التي كانت تبعد الأطفال بعد أن يسلموا عليّ خشية أن ينطلق بكاؤها

الذي حبسته كثيراً بإرادة صارت تثير إعجابي. ليتني أستطيع إعادة الأمور إلى نصابها، فقد أتعبتني مقاعد الحدائق الخشبية، وأرصفة الشوارع، والتواري عن الناس، لكنني كنت أنتظر شيئاً ما، شيئاً غامضاً ينتشلني من هذه المحنة متحلياً بالانتظار. وبعيداً عن التفكير، أو النقاش في ما مضى.

انقطع الفلكي عدة أيام. وعندما عاد لم يعد ينظر إلى السماء. كان عجوزاً نشيطاً على الرغم من إصابته بمرضٍ يبدو أنه معدٍ، ما تسبب بإبعاده عن حفيده، فمنعوه من رؤيته، ليتحول حديث المجرات والنجوم إلى الحديث عن حفيده، أوصافه، كلماته، ألعابه، ساعات استيقاظه ونومه، وتفاصيل طعامه، وتبوله. وبعد عدة أيام، صار يتحدث بهذيان متصل؛ ربما يكونون الليلة قد نسوه في الروضة، هو يعرف ابنته التي تلتهي بالمشاحنات مع زوجها وتنسى إعادته من الروضة، أو تخمن أن زوجها سيأتي به بينما هو مسافر، وفي إحدى الليالي صار يلح مردداً بأن الصبي قد نسوه في الروضة، ترى ماذا يفعل الآن؟ إن الظلام يفترسه، وبعد أن أفرغ كل دموعه، لم يأت أحد لأخذه من بين الجدران المظلمة. إنه الآن يتبول على نفسه من تهيؤات الظلام. يا لهؤلاء الصغار الذين رزقوا بوالدين متشاحنين، وتركوا الأولاد في مهب الضياع في الشوارع، أو في الحدائق. وفي الروضة، قد يختبئ الصبي في مكان منزوٍ، فتنصرف المعلمات، والمستخدم يغلق الباب الرئيسي ويذهب إلى منزله

ليتشكى أمام عائلته عن الإرهاق والتعب الذي يعانيه مع السعادين الصغار، بينما الصبي يخرج من مكانه فلا يجد أحداً، ولا حتى من يسمع صراخه طوال الليل، من يطرد رعبه! ويضمه إلى صدره، ويطعمه لقمة خبز! من يخرج الذعر من عظامه الصغيرة!

صرنا نذهب في الليلة الواحدة مرات عدة إلى محيط روضة الصغير. ننتشر حولها علنا نسمع صراخه، أو أنينه المرهق. وعندما نلتقي أمام الباب الرئيسي بعد الدوران حول المبنى، يطمئن العجوز، ونرجع صامتين إلى الدوار الذي ننعم فيه ببعض أحاديثه عن الثريا والدب الأكبر والأصغر والمقلاة المقلوبة في السماء.

ذات ليل، جاء العجوز يبكي. لم تُجدِ معه كل ضروب التطمينات والترجيات، ولم يستطع أحد جره إلى الحديث عن نجوم السماء. وحتى الذين سألوه أسئلة محددة لم يرد عليهم. كان قد عاد إلى نوبة الحفيد المنسي. طرحنا عليه، كالعادة، الذهاب إلى محيط الروضة فرفض، هذه المرة لا يحتاج إلى تطمينات، فهو يريد الدخول إلى الروضة والتأكد بنفسه. طرحنا عليه فكرة الذهاب إلى منزل المستخدم، علّنا نغريه فيفتح الروضة لنا للتأكد! فأعجبته الفكرة، لكنه، وبعد طول تهيؤات، لم يستطع معرفة المنزل الذي يسكنه المستخدم، ولا أي من العاملين في الروضة!

* * *

كنت ذلك اليوم متعباً، إذ وجدت الركن الذي أتمدد فيه ظهراً في زاوية إحدى الحدائق مشغولاً بمن سبقوني، ولم أتمكن من الاستراحة، ففكرت في الذهاب إلى المنزل، لكن الفكرة لم تعجبني، فآثرت المرور أمام المحل، خاصة أن المحلات المجاورة تكون مغلقة فترة الظهيرة. رأيت أن أحد باعة البسطات غافياً أمام محلي، ليتني أستطيع أن أفعل مثله، بل ليتني أعود لفتح محلي لمرة واحدة فقط.

لابد أن التعب الذي ملأ عظامي من طول المشي في الشوارع قد أخرني، فما إن وصلت الدوار في المساء حتى كدت أتمدد على المقعد وأطلق شخيري بلا خشية، لكن العجوز سرعان ما جاء وبدأ نغمته الحزينة.

لم أشأ الذهاب معهم، لكنهم أصروا عليّ، فقضينا الليل نبحث عن عناوين لا نعرفها، لكن العجوز سرعان ما حسم الأمر بالقفز من السور الخارجي والدخول إلى الروضة، صرنا نسمع أصوات ضربه على الأبواب المغلقة وصياحه وهو ينادي على حفيده بلوعة وفقدان.

عدت إلى المنزل. كان الأولاد نائمين. زوجتي فتحت لي الباب مثل آلة معدنية. لم تسألني أين كنت طوال الأيام الماضية، ولم تعبّر

عـن أي انفعـال، فقـط سـألتني إن كنـت أرغـب بـشرب الـشاي فرفضت. تمددت على الأرض العارية دون مقدمات. طوال الليل كان العجـوز ينـاديني وأنـا أهـرب منـه، كـان المـدى في الحلـم بنفـسجياً مخضب الأطراف بسواد قاتم. لم أستطع الالتفات إليه وهو ينـاديني، فقد كانت المجموعة قد انفضت من حولـه، ولم يعد ينـادي إلا علـيّ بصوته العالي الذي ترجع أصداؤه وديان الحلم البنفسجية!

في الصباح استيقظت متعباً، ودون إبطاء بـدأت بجمـع مـا تبقـى مـن أثـاث وثيـاب في المنـزل، وقلـت لـزوجتي دعينـا نـذهب إلى مدينـة أخرى، علّنا نستطيع البدء مـن جديـد. ابتسمت، وكـادت أن تنـدفع إلـيّ لـولا خـشية فيهـا مـن إبـداء عواطفهـا، انـدفعت إلى الـصغار تبشرهم، وكأنها كانت تحكـي لهم عن مثل هـذه اللحظة طوال الأيام الماضية!

❒❒

شارع عباس

اتصلت بي أختي عادلة وقت الظهيرة. كان الموعد غير مناسب، فاستاءت زوجتي من صوت الجهاز الذي كان يرن بإصرارٍ أحمق، كأنما يؤكد وجوده في صمت الظهيرة.

طلبت أختي أن آتي فوراً لأوقع على عريضة تغيير اسم شارع عباس، الذي يقطن فيه أهلي، باعتبار أني

الأخ الأكبر والمساهم في اتخاذ قرارات العائلة، رغم أن زوجتي رفضت رفضاً قاطعاً السكن في شارع عباس، لأن الأحياء الشعبية تثير اشمئزازها.

سألت أختي إن كانت بكامل وعيها، لتتصل في مثل هذا الوقت، وتطلب مثل هذا الطلب الجنوني. أصرت على مجيئي، فالأمور لا تشرح على الهاتف، وأغلقت ناسيةً الاعتذار عن اتصالها في مثل هذه الظهيرة!

هل يعقل أن أوقع بيدي على عريضة تغيير اسم شارع عباس؟ هل يريدون تغيير اسم الشارع إلى إحدى الدعايات التلفزيونية، أم إلى اسم شارع مارلبورو، أم إنها مجرد فذلكة من أحد المتفاصحين بتغيير اسم الشارع من الشهيد عباس الجاسم إلى الشهيد عباس القاسم مثلاً؟ إذا كان الأمر كذلك، فهم لا يستشيرون أحداً، ولا يطلبون موافقة إنسان على شيء يخصه، أو لا يخصه، فهم يقررون وينفذون ويغيرون وهكذا. و لا دخل لأحد بما يصرفون من مال، أو بما يغيرون، فالشوارع وأسماؤها لهم، وما على الناس إلا تغيير عناوين مراسلاتهم القليلة بأسرع ما يمكن قبل أن تذهب رسالة ابنك إلى أبٍ غيرك، أو رسالة أخيك إلى شخص آخر، تغير اسم شارعه باسم شارعك السابق.

لبست على عجل، و تركت زوجتي وطفلي الصغير نائمين. كتبت ورقة صغيرة عن مكان ذهابي، فأنا أحاول أن أحدَّ من الفوضى الشديدة التي عشتها سابقاً، والتي يحلو لزوجتي أن تسميها فوضى شارع عباس.

العجيب في الأمر أن أمي كانت تصر على والدي أن يسكنها في شارع عباس، فقد كان شارع عباس تحفة في حارتنا، كونه أول شارع عريض يشق للناس، ومازال أتذكر الآليات الصفراء الضخمة وهي تدفع التراب الرطب أمامها، وتجعل التلة التي في وسط الشارع طريقاً مستقيماً. كانت الآلية المرتفعة، يعلوها رجل في برج زجاجي لا أكاد أتبينه. كنت أحمل لوحاً أسود صغيراً، اشتراه لي والدي لأتعلم الأحرف والأرقام. انقرضت تلك الألواح، والآن صار الكمبيوتر أداة مثلى للتعلم، ولوح الطباشير الأسود، المؤطر بخشب رقيق بعرض سنتمتر واحد، ذو المساحة الصغيرة التي لا تزيد على (15×20سم)، لم يعد موجوداً في الأسواق. بحثت عنه مرة من أجل استرجاع لحظة طفولية. كنت أود أن أكتب عليه وأمحو، أكتب وأمحو حتى أملّه وأكسره خارجاً من صورته التي تراودني دائماً.

الآن، عادت الصورة مؤزرة بالذكرى، بل بمقاومة اقتلاع الذكرى، ثم كيف توافق أختي نفسها على مثل هذه الفكرة المجنونة؟ ألم يكن أول شارع تخطو فيه هو شارع عباس. ويوم

انتصبت على قدميها وصارت تخطو، أعطاها أبي قطعة نقدية مكافأة. أخذتها إلى الشارع من أجل شراء مصاصتين لها ولي، وليرى الناس إنها تخطو الآن أولى خطواتها.

كيف أوقع على مثل هذه العريضة، وأنا الذي احتفظ بي شارع عباس يوم بقيت في البيت متأخراً عن موعد ابن الجيران الصغير من أجل الذهاب إلى مكان ما، ربما لحضور مباراة بكرة الخرق مع حارة مجاورة، أو للتفرج على السيرك الذي حط خارج المدينة، أو ربما لمجرد الركوب في باص النقل الداخلي، متحايلين على الجابي بعدم الدفع والبقاء في الباص، مستمتعين بصوته، وبتغير وجوه الناس فيه. عندما فطنت إلى تأخري، رأيت ابن الجيران ذاك ممدداً على الأرض. أخرجت أحشاءه شاحنة تبن، وألصقته على الإسفلت الأسود الحار. لم يعد موجوداً صار مثل ذبيحة القصاب، أو مجرد دماء وعظام وبقايا آدمية لطفل غير معروف. لم أنتبه أول الأمر. رأيت الناس متحلقين حوله، فاندسست لألقي نظرة إلى بقايا القصابة، فلم أعرف فيها صديقي. كان اسمه عزيز. كان صغيراً وذكياً يملأ الحارة صخباً، ولم يعد كذلك، فالشاحنة متوقفة قرب الرصيف الترابي، شلول التبن عالية تكاد تطاول أسلاك الكهرباء المعلقة، والسائق هرب إلى قسم الشرطة لئلا يهجم عليه الناس، أو أهل المفعوس الصغير!

في شارع عباس، أدمنت لعب الكرة، وانتبهت إلى تفتح المراهقة فيّ، إذ صرت أمشي برزانة، وأنظر إلى الفتيات اللواتي ما يزلن متفاجئات بتنهد صدورهن. كنا نسهر قرب عمود الكهرباء الخشبي المغمس بالجير، نتداول الأحاديث عن النساء والصور الممنوعة التي ينسل بها إلينا صهيب. نلتف حوله وننظر إلى الأجساد الأنثوية الجميلة، الخليعة، فتيات شقراوات، وسمراوات في أوضاع فاحشة، ورجال يلبسون ألبسة شعبية، يخرجون أعضاءهم الجنسية راكضين خلف العري المستباح أمامهم. الفتيات يبتسمن وهم يلهثون، هنّ يفرشن صدورهن وأفخاذهن ومؤخراتهن، وهم يركضون غير عابئين بالحشمة التي تفرضها ثيابهم البدوية، أو الجبلية. إطارات الصور تمنعهم من الوصول إليهن، وتمنعهن من الارتواء بهم، فينتقل لهاثهم إلينا، ونطارد ابتساماتهن الماجنة، لكننا أيضاً نصطدم بغلاف النايلون الذي غلف به سهيل صوره المأجورة، حفاظاً على استمراريتها، وخوفاً من هجومنا ولهاثنا الذي يتوقعه.

تبقى رغباتهن سجينة النايلون الشفاف، ويبقى لهاثنا ضائعاً في ليالي الشارع الطويلة.

عندما جاءت أغنية "على كوبري عباس"، انتشرت على نمط أغاني الكراجات، حتى صارت شعارنا جميعاً كباراً وصغاراً،

فالمطرب حتماً يغني شارعنا، ولذلك لم يخل بيت من كاسيت "على كوبري عباس".

كنا نحمل أمواس الكباس، أو سكاكين الفولاذ التي كانت تسمى "قندرجية"، ربما لأنها سلاح الحذّاء على الأحذية التي تواجهه أقفيتها كل لحظة. لا أعرف لماذا كنا نحمل تلك الأسلحة، كأنما كنا نفترض أن أحداً ما سيجبرنا على التخلي عن الأنثى التي سنطبقها، ويهددنا فنشرع أسلحتنا السرية بوجهه لتبتسم الفتاة الجميلة لفحولتنا وقدرتنا. وربما نمد يدنا إلى يدها الصغيرة الناعمة تاركين المنافس مرعوباً بائلاً على نفسه. سنذهب إلى الحديقة حتماً، وسنقتنص في غفلة من الناس قبلة طويلة، مثل قُبل حسن يوسف ونبيلة عبيد، أو محمود ياسين ونجلاء فتحي، أو محمود سعيد وهو يقوم بدور عنترة مع سميرة توفيق بدور عبلة.

لكنّ فتاة ما، لم نصطحبها إلى الحديقة، و لم يعترضنا منافس، ولم نصعقه بصوت موس الكباس، أو منظر القندرجية، ليقف بائلاً على نفسه. كان حيناً من الزمن يتطلب ذلك لا أكثر، كشعور واهم في سلسلة طويلة من الحياة الواهمة التي نعيشها. مأساة أولاد شارع عباس أنهم دائماً يعرفون الأشياء من غير مصادرها الحقيقية. كنا نأخذ الحياة من السينما، مثلاً، والأحداث من الراديو، والأنثى من الصور، إلى حد أنني أتفقد نفسي

دائماً إن كنت افتراضاً وهمياً، أم وجوداً حقيقياً، أم مجرد مشهد في فيلم سينمائي، أم حقيقة من لحم و دم. لم يأخذ أحد برأينا، ولم نفعل شيئاً وفق إرادتنا. كنا دائماً نجد أنفسنا وسط شيء جديد لا نعرفه، ولم نخطط له، فقد صنعه الآخرون، و خططوا له أو لم يخططوا. فهم قد كفؤوه على رؤوسنا لنقوم به، تماماً مثل ممثلين على مسرح تتغير أدوارهم بغير إرادتهم، وبشكل متنافر يصعب عليهم فيه التقاط أنفاسهم والتفكير في ما يقومون به.

* * *

شوارع الظهيرة خاوية. وهنالك جماعة من الناس خرجت من أحد البيوت. ربما كانوا مدعوين إلى الغداء. كانوا يدفعون بطونهم المليئة بكسل، ويتبادلون الحديث بضجر ثقيل!

مراهق يتصبب العرق منه يقف في زاوية الشارع. ربما ينتظر خروج فتاته إلى البلكون، أو إطلالتها من النافذة. يبدو كأنّ زمناً طويلاً قد مرّ عليه وهو في هذه الحال. يبدو متحفزاً لالتقاط النظرة القادمة، أو اللا قادمة.

تشفِّط سيارات فارهة يقودها مراهقون من أولاد حديثي الثراء، أو أولاد سدنة الآلة البيروقراطية، التي تستنزف كل شيء بنهم وقسوة ولا مبالاة بأي اعتبار. تضرب إحدى سياراتهم المتسابقة

فرامها الصاخب أمامي. يتضاحكون، بينما رائحة احتراق العجلات تملأ المكان. و سرعان ما تلتحق السيارة بمثيلاتها التي تدور في ساحة صغيرة حول عدة فتيات غيبهن الضجيج المنبعث من المحركات، والضحكات، ويتقافزن بعيداً عن الأيدي الممدودة إليهن من النوافذ متحرشة بأجسادهن. أتغاضى عن النظر إلى الموكب، لئلا أعرف إحداهن. ينكمش رأسي ويغوص في جسدي. ينزلق سريعاً في تجويف صدري الذي فتحته الرهبة، ويغوص في الفتى، صاحب موس الكباس، يغوص متلاشياً مع رأسي الذي ترك مكانه مرعوباً.

أحافظ على سيري. أبدو جسداً بلا رأس يعبر الشارع إلى الرصيف، كأن شيئاً ما لم يكن، أو كأن قطعةً لم تنتقص مني. أندفع بعيداً عن الصخب، فأنا لا أريد ظهيرة مزعجة، وهؤلاء فوق الاعتبارات التي تزعجني، بل يركلونها بأرجلهم الصغيرة متى شاؤوا، بعد أن تعب آباؤهم من ركلها طوال الدوام، فراحوا يتسلون بها، وبمفاتيح السيارات الفخمة التي تقف ضجرة وقد اعتادت الحركة الدائبة. ظل رأسي غائصاً في جسدي مسافة طويلة، رغم أن الصخب ابتعد، والظل يغمرني طوال الأرصفة التي تمضي بي إلى بعضها.

* * *

يهتز قلبي، أو يرتجف وأنا أدخل شارع عباس، كأني أدلف إلى أيامي الماضية مجتمعة؛ الدكاكين التي شهدت افتتاحها واحداً واحداً؛ المدرسة القديمة. تطل واجهات البيوت بتضارب شديد، فقد كانت من قبل ساحة لتخزين العلف والسيارة التي قتلت الطفل الذي كان ينتظرني، ذهبت بعلفها إلى تلك الساحة، وظلت أكداس العلف عليها طوال النهار، والشرطة تروح وتجيء، وترسم، وتنفرد بالناس جانباً، حتى عدلوا كل شيء إلى غير ما كان في محضر القضية. عرفنا ذلك حينما صرخت الأم مفجوعة وهي ترى قاتل ابنها يقل العلف إلى الساحة نفسها، وبالسيارة نفسها، بعد فترة قصيرة.

بعدها، صار المكان مدرسة. كانت أسوارها عالية، وما إن ندخل في الصباح حتى ننقطع عن شارع عباس، فلا تأتينا منه غير الأصوات الممتزجة ببعضها. وعندما نخرج في الظهيرة، نفرح للانعتاق، ولرؤية شارع عباس. كنا نقول عنه عباس، كأنه شخص، وليس شارعاً. هل ذهبت إلى عباس؟ هل تسكنون قرب عباس؟ سأراك عند جامع عباس.

ومذ صار الشارع عرفنا المرأة العجوز المتشحة بالسواد. يقولون إنها أم عباس صاحب الشارع الذي تطوع في جبهة فلسطين وعاد ممدداً في تابوته الخشبي لا يسمع الصياح ولا النداءات. لم يقل ما فعلوا به، ولم يفصح عن أسرار جسده الملتف بالسجادة الملونة،

وبالتشهدات والوجوه التي تتجه إليه. قال أبي إن المدينة كلها سارت خلفه، وهو لم يلتفت إلى الناس جميعاً. لم يقل ولا كلمة، كأنه يؤنبهم، أو هو عاتب عليهم ولا يريد أن يتحدث، أو حتى أن يخرج من حيزه الضيق. قال أبي إنه يستحق أكثر بكثير من اسم شارع على أطراف المدينة، يكدس فيه تجار العلف محتكراتهم إبان سنوات المحل، فتثغو الأغنام بشكل جماعي، ويلهث أصحابها على أعتاب التجار النائمين بسعادة لاطمئنانهم إلى انقطاع الغيم منذ أشهر طويلة، وسؤالهم كبار السن عن جدوى المطر فيما إذا أتى غزيراً. يبتسمون في دواخلهم وهم يقرؤون تعابير اليأس على وجوه الشيوخ المقفرة.

يؤذن الجامع، فينطلق صوته عالياً في أواخر الظهيرة، مؤذناً بانحسارها. في صغرنا، كنا نذهب إلى الجامع أيام الجمعة، وعندما يزدحم المكان يطلبون منا التراجع إلى الخلف، وإذا شاغب أحد الصغار، أو رفع صوته مستغرباً حركة المصلين، فإننا نطرد بشكل مباغت وقاس. أول مرة أدخل جامع شارع عباس هالني الارتفاع الكبير لسقفه، و هالني اتساعه. بدوت ضئيلاً ضائعاً أمام السجادات المليئة بالزخارف الملونة، والمراوح المتدلية وهي تصدر أصواتاً منتظمة. وتنتهي السلاسل المعدنية الطويلة بثريات مذهبة تتألق بصمت مشع ومتلألئ. كان المكان جميلاً مفاجئاً منتظماً، لا

تغيب رؤيته الأولى عن ذهني، فبيوتنا في شارع عباس تفتقد تعدد الألوان والصمت والاتساع، اللهم إلا ساحات البيوت الترابية التي تمتد بلا سمة تميزها غير الفراغ والإهمال.

* * *

قالت أختي عادلة دون مقدمات ورغم انقطاعي عن زيارة البيت أكثر من ستة أشهر نتيجة خلاف حاد معنا أنا وزوجتي:

- المدرسة القديمة صارت بلوة!

ظللت صامتاً كجزء من استمرار الخلاف، أو تأكيده، والرفض الحاسم للموافقة على تغيير اسم الشارع مهما كانت الأسباب!

- لم نعد نستطيع النوم!

أصوات غامضة، وصرخات بعيدة، عميقة تنبثق من الأرض من الجدران من أوراق شجرة التوت، أنين يصم الآذان يوقف التنفس، لم نعد نستطيع النوم. هذا الشارع اللعين لا أعرف لماذا نبقى فيه؟ لقد صارت الحياة فيه كابوساً ثقيلاً، كل يوم تأتي الشرطة تسأل عن فلان ابن فلان أين يسكن؟ وكيف سلوكه؟ ما اسم أبيه وجده وجد جده وخالته وعمته؟ ومن هو زوج ابنة عمة خالته؟

أم عباس نفسها رفعت الطلب لتتخلص من عار الشارع. ادعت بأن عباس ليس ابنها، ولم يكن شهيداً، ولا يستحق أن يسمى هذا الشارع باسمه. عباس كان مجرد شخص ساذج يصدق كل ما يقال، وإذا بعثته إلى الدكان فإنه لا يرجع قبل ساعتين ويكون قد نسي لماذا أرسلته!

أم عباس تقول إن اسم عباس الحقيقي ليس عباس الجاسم، فهو ابنها من زوجها الأول الذي شرد في البراري، ولا أحد يعرف مكانه، لذلك يجب أن يغيروا اسم الشارع. ليسموه ما شاؤوا، المهم ألا يبقى اسم هذا الشارع ملتصقاً بها.

هذا الشارع يجب أن نهجره. لقد نجوت بنفسك. (الهانم) أبعدتك عنا وتركتنا للأرق والأنين الغامض، كأنه صوت آلة متواصلة البث.

حتى السماء لم نعد نستمتع بالنظر إليها، فالأشباح التي تمطر منها تملأ المكان؛ أشباح لرجال رثين مشوهي الوجوه، أطرافهم مرتخية مثل أكمام بلا أعضاء تحركها، ينسدحون على الرصيف ومدخل الدرج، وساحات البيوت الخلفية. يظل الليل مملكتهم حتى يأتي الصباح، فنخرج صرعى الأرق والإجهاد.

عليك أن توقع. الجميع يوقعون، بعضهم خائف، لكننا لم نعد نخاف شيئاً. أرجو أن توقع، علهم ينقلون مركز الاستنطاق الذي افتتحوه في المدرسة القديمة. لم نعد نحتمل العيش، ليذهبوا به إلى الصحراء، أو إلى بيوتهم. لم نعد نستطيع النوم، أو التفكير أو الحياة. صار المركز هو كل شيء.

في الليل، تأتي الشاحنات، وتنزل حمولات غامضة تدخل بعد منتصف الليل ولا تخرج. كأن المكان يبتلعها، أو كأنها تذهب في أنفاق سرية تؤدي إلى حيث لا ندري. بعدها ينبثق الأنين، وتخرج الأشباح الشوهاء لاجتياح الشارع؛ تخرج صامتة كأنها أفرغت شحنات الأنين قبل أن تأتي مثل أشياء معصورة رميت في الخارج. لم تعد لها حتى قدرة التدحرج على الأرض وهي تقذف خارجاً.

تناولت الورقة. كانت عليها بصمات وتواقيع غير متقنة لأناس شارع عباس غير المتعلمين أو قليلي الحظ من التعلم. آثار رطوبة على الورقة تركت مكانها مجعداً، بعد أن نشفت. لعلها دمعة أم عباس. كتبت اسمي كاملاً ووقعت. قلت لعادلة سأذهب معهم إلى البلدية أيضاً.

❒❒

عودة إلى الصبا

هذه المقطوعة (عودة إلى الصبا)
هي جزء من مدونة روائية جماعية على الإنترنت

كتبها سوريون، من مختلف المشارب، ومختلف بقاع الأرض، إبان ازدهار موقع السيريانز ضمن مجموعات الياهو، أيام الانفتاح الذي شهدته بلادنا. ولكن، فجأة، اختفى موقع السيريانز، وضاع أرشيفه بين عشية وضحاها، وتفرق سوريو السيريانز الأوائل في عماء مقيم. وكلنا أمل أن يتجدد اللقاء الجميل بين عقول سورية مشرقة تنظر إلى المستقبل الأفضل لبلادنا.

ساهم في تلك المدونة، التي لا أمتلك حق نشرها كاملة، كثيرون، وأكتفي هنا بنشر الجزء الصغير الخاص بي، ضمن المدونة التي كانت ترصد مشاعر مغترب يعود إلى البلاد بعد زمن طويل من الغربة والحنين إلى الوطن الذي كان محروماً منه. وعبر هذه الصفحات، أوجه التحية إلى كل مساهمي الكتابة في مدونة السيريانز الروائية: نهاد سيريس، وفارس الحلو، والمرحوم وليد قارصللي، وعلي سفر، وعمر البحرة، وعزام وماس، و واي جي، وعبد الله الحمصي، ومع التحية إلى: الجنتل. روز. سوزان خواتمي. جاكلين سلام، مع حفظ الألقاب. وإلى كل السيريانز الأحباء، الذين لم أعد قادراً على التواصل معهم بكل أسف، وكلي أمل أن يأتي اليوم الذي نكمل فيه هذه المدونة وننشرها كاملة.

اتجه فهمي إلى خارج المدينة. قال لي أريد أن أجعل سهرتك صبّاحية، وسأرجع بك عندما ترى الديك حماراً... دقها هون!! وعندما صار الطريق خالياً، والسهول امتدت أمامنا بلا مقدمات، وكأننا نتجه في الطريق الصحراوي، تذكرت تلك الرحلة الجميلة أيام صبانا.

بعد سنين من تركنا تدمر، وفي رحلة لمجموعة من الشباب، كنت فيها دليل المجموعة، لأنني اعتبرت نفسي من سكانها، كانت آثار المدينة مفاجئة للجميع بعد الطريق الصحراوي الخالي إلا من الغبار والأفق الفارغ، كأنما أبيدت الأشياء جميعاً لتظهر الصحراء عارية تحت السماء، التي كانت أيضاً خالية من أية غيمة، أو علامة.

صحراوان تمتدان أمام الناظر، وإذا تجمعت كل زوايا النظر للجالسين الصامتين في كل الاتجاهات كان الفراغ هو الكون الممتد بأبعاده الثلاثية. شعرت كأني داخل مصباح كهربائي خالٍ من الهواء. كانت الصحراء تفرض الصمت علينا جميعاً، كأنما لتكمل فريضتها بالصمت الأصم الذي تعتكف فيه.

المدينة الأثرية خلقت الأمل أمام الجميع، وعاونهم قدمها وعراقتها على تعميق ذلك الأمل بتصور الزمن الطويل الذي قاومت فيه الصمت والفناء المحيط بها. ولعل روح الخلق التي ملأت نفوس

الناس في هذه المدينة القصية، عبر زمنهم الطويل، أيقظت في نفوس الجميع روح التحدي، واستيقظت إرادة الشباب في المضي قدماً لتحدي الصحراء الصامتة والخاوية، بتغيير طريق العودة إلى دمشق، لتصبح بالاتجاه المعاكس إلى دير الزور، ومن ثم بالتوازي مع الفرات حتى حلب فدمشق. تصورنا باصنا كأنه سينزلق على خريطة سورية، لنتلمس جغرافيتها، عابرين مدن وقرى الجزيرة المنذورة للإهمال والغبار، ونهب الدرك والمتنفذين! حتى نصل حلب، مدينة الطرب والكباب والتجار، الذين يبتكرون فنون العرض لبضائعهم التي تأسرك مهما كنت حريصاً!

تردد البعض. خافوا من الصحراء الهاجعة على كل الآفاق، وامتعض سائق الباص، لكن زيادة الأجرة جعلته يكشف عن مخبوء ماضيه في المسير عبر الصحراء، وكيف أنه يعرف هذه السهول شبراً شبراً.

- لا يغركم تشابه الأشياء. ما إن تنظروا جيداً حتى تروا التمايز والمسارات. اتركوها علي أنا (أبو وردة)! سأجعلها رحلة العمر التي ستتذكرونها وتتذكروني طوال حياتكم!

في الفجر التالي، سافرنا مختصرين اليوم الثاني في تدمر، لنمضيه على الطريق القادم، والذي ورطتنا فيه نزوة الأمل، وروح

الشباب، لكننا لم نشأ النظر إلى الخلف، فجلس أكثرنا اقتناعاً إلى جانب المترددين، وعاد أحد الطلاب منفرداً إلى دمشق، حيث صار يبكي خائفاً، مما كاد يودي بنفوس المترددين، وحتى بهمتنا، نحن الأكثر إقداماً واقتناعاً بالرحلة، وكاد يوسف جابر أن يضربه أمامنا لولا تدخل السائق!

هبّ العجاج علينا طوال النهار، حتى كاد أن يوقف رحلتنا أكثر من مرة، لكن انحسار العواصف المؤقت يجدد إرادتنا، وكلام أبو وردة الذي يصر أنه يسوق كأنه في قلب الشام:

- أعرف هذه البقع جيداً، وأعرف حتى نوبات العجاج التي تنتابها!

رغم ذلك، فقد تاه أبو وردة، منحرفاً في طريق صحراوي، حيث لم يكن طريق دير الزور – دمشق معبداً، ولا يتميز كثيراً عن بقية الطرقات، أو ربما أراد أبو وردة أن يختصر الطريق، فكان انحراف المسار أبعد بكثير مما قدر.

ضحينا بما لدينا من ماء لتبريد محرك الباص، وعدنا نسترجع قصة لعبد السلام العجيلي بالتبول في "الراداتور" لنخفف حرارته الزائدة، إذ يذكر أنه لولا تبول إحدى السيدات الزائد لما استطعنا أن نبرّد المحرك.

ولأن رحلتنا بلا فتيات، فقد صرنا نمزح مع بعضنا لحصر البول من أجل إنقاذ الرحلة، وانتخاب البائل الأول، أو المنقذ البولي. وعاوننا عبث المراهقة ولا مبالاتها على اجتياز الطريق الصحراوي الذي يذهل أشد القلوب اطمئناناً.

وعندما وصلنا إلى شاطئ الفرات، عصر ذلك اليوم، كانت مفاجأة أخرى من مفاجآت بلادنا. إنه النهر الذي يتدفق بسيل هائل من الماء، الذي كاد غياب حفنة منه أن يقتلنا في الهجير!

ـ مــــاء!!

صرخنا جميعاً، ونحن نستشرف النهر الذي بدا أمامنا كأنه سهل طويل، ولكن ليس من تراب، أو غبار. إنه ماء ينبض دافقاً، كأنه يبتسم بحكمة نابذاً نزق الصحراء التي حوله وعصبيتها وأحقادها الغبارية التي كدنا أن نموت فيها.

قذفنا بأنفسنا إلى الماء. تصايحنا. شربنا. شربنا حتى ظننا أننا سنشرب النهر كله، لكنه لم يتبدل، ولم تتغير ابتسامته أمامنا.

شعرنا بأننا أطفال أمامه. نزعنا نزق العواصف، ونزق الظمأ، وبدأنا نلهو في الماء العذب المتدفق منذ فجر الأبدية، فلم يفقد الأمل وسط هذي الصحاري، ولم يفتقد نبضه الدافق رغم كل ما يحاصره من صحارٍ. مرت عليه شعوب وحضارات، رجال ونساء، طغاة وأخيار، وظل مبتسماً للظامئين.

يومها، رأيت، ولأول مرة في حياتي، الجسد الأنثوي بتفاصيله. كانت إحدى الفتيات من سكان القرى المجاورة تسبح بثوبها القماشي الناعم، وعندما فاجأها ضجيجنا، خرجت من الماء بتفاصيلها الرائعة. كانت أجزاؤها تصرخ طافرة من ثوبها، تريد الخروج لترى السماء والناظرين. كان ثوبها ملتصقاً تماماً على كل جسدها الجميل!

ظلت تلك الصورة محركاً لذكورتي طوال سنوات الحرمان، في انتظار الذهاب إلى السويد والتمرغ بالأجساد البيضاء الجميلة التي طالما تصورت أبعادها وملمسها. لكن صورة ذلك الجسد الخارج من الفرات ظلت تحتل النكهة الأولى. ومبدأ الإحداثيات الجنسية لدي لحين السأم من الجنس وتراجعه، ليحتل مراتب متأخرة في حياتي، حيث كانت إحدى محركات هجرتي إلى السويد هو الحرية، والحرية الجنسية التي طالما صرفنا ساعات طويلة من كل يوم في حياتنا حول تفاصيل الجسد الأنثوي وتصوراته التي كنا نبتدعها، حتى جعلت من المرأة مخلوقاً خرافياً متعدد الأبعاد. ورغم الزمن الطويل الذي بددته على الجنس في بداية ذهابي إلى السويد، فقد تجاوزت تلك العقدة، كما أعتقد، إلا إن كثيراً من الآخرين لايزالون أسرى تلك التصورات والتخيلات. ربما لأنهم لم يمتلكوا الجرأة على مصارحة أنفسهم ومفاهيمهم، ولم يجرؤوا على وضع أفكارهم على المحك، وتحت الشمس، بدلاً من الاختباء

في كهوف التصورات والتخيلات التي تنبع في أنفسهم أفاع ومخلوقات ومفاهيم غريبة!

* * *

عندما عدت مرة أخرى إلى تدمر، بعد سنين طويلة، فاجأني إحساس آخر وأنا أقطع الصحراء إلى المدينة. فاجأتني أصوات غامضة تنبع من الأرض، من الأحجار، من الجدران، من وجبة الطعام، من كأس الماء، من الأفق، من كل صوب ينبع أنين غامض بوتيرة لا تنضب؛ أنين لأناس يتلوون على آلات العقاب التي كتب عنها كافكا، تلك الآلات المتقنة في استنزاف القوى البشرية، وتحويل الأجساد إلى مجرد موجات صوتية من الأنين، وسوائل تجري في ممرات تأخذها إلى الفناء.

لم أستطع النوم طوال الليلة التي قضيتها في الفندق المجاور للآثار، و لم أهنأ حتى بشرب الماء وأنا محاط بالصحراء التي تطوق المدينة.

أنين غامض تطلقه أجواق من الناس تحت الأرض، كأنما تغيرت جيولوجية المكان، وتحول جوف الأرض إلى طبقة من الأنين، ومن السوائل التي تفرزها آلات كافكا التي صورها في أرض العقوبات!

يومها، اعتقدت أن بركاناً سينفجر في المدينة، أو أن زلزالاً سيدمرها! سألت الآخرين عما ينتابني، فلم يأبهوا لما بي. لم أستطع

التحمل، وفي الصباح الباكر انطلقت في الطريق إلى دمشق، ليظل هذا الإحساس ينتابني سنين طويلة، وحتى هذا اليوم، كلما تذكرت مدينة طفولتي الأولى تدمر.

وأنا الآن شديد الحيرة. هل أزور تدمر مرة أخرى لأتأكد من أن أصوات الأنين قد توقفت. أم أتجاهل زيارة المدينة لئلا يتعمق شعوري بهذا الأنين الذي كان يلازمني طوال سنين، ولئلا يفاجئني امتداد الأنين إلى كل مكان، وغليان الأرض جميعها بهذا الأنين الآدمي الخافت، الذي استطعت التخفيف من آثاره بملذات الحياة الأخرى، وبالتأويلات التي أقنعت نفسي بها، وبصب جام اللامبالاة على الأشياء من حولي، وفي ذاكرتي، حتى أني منعت نفسي من تتبع أخبار بلادي لئلا ينبع علي ذلك الأنين من صحيفة، أو من صوت مذيع، أو من وجوه الناس الكامدة. استطعت طمس أجزاء من ذلك الأنين، لكنني أخشى العودة إلى مدينة طفولتي الأولى، كي لا أراها مثل تفاحة شهية ينخرها دود صغير غامض، يجوف لبها، ويترك دوائره السوداء الصغيرة على سطحها الذي كان جميلاً ولامعاً!!!

❐❐

البحر الأسود المتوسط
إبراهيم العلوش- قصص
دار الفرقد- دمشق 2010م

المحتوى

❑❑

البحر الأسود المتوسط
إبراهيم العلوش- قصص
دار الفرقد- دمشق 2010م

أعمال صدرت للكاتب:

- هذا عذب فرات - قصص - دمشق 1994.
- الطائر والدرب - قصص – السويد 1997.
- وجه الصباح - رواية - وزارة الثقافة – دمشق – ط1 – 2001.

دار التكوين ط 2 – دمشق 2007.

e.alalwash@hotmail.com

❒❒